سعد البواردي

شريط الذكريات



شريط الذكريات

سعد البواردي

دار المفردات للنشر، الرياض

ح) دار المفردات للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البواردي، سعد عبدالرحمن

شريط الذكريات. / سعد عبدالرحمن البواردي. — الرياض، ١٤٣٦هـ

٢٢٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ - ٣٨ - ٨١٥٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الشعراء العرب - تراجم أ - العنوان

ديوي ٩٢٨,١ ١٤٣٦/٥٩٣

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٥٩٣

ردمك: ١ - ٣٨ - ٨١٥٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

دار المفردات للنشر والتوزيع ، الرياض

المملكة العربية السعودية

ص. ب: ٧٠٣ / الرمز البريدي: ١١٤٢١

هاتف: ٤٧٠٨٥٢٩ ، فاكس: ٤٧٠٨٥٤٥

الموقع الإلكتروني: www.almufradat.com

البريد الإلكتروني: almufradat@gmail.com

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ذِكرياتي
شريطُ رَحْعٍ لذاتي
هِيَ مني
حكايتي. وحياتي
واقعاً. لا تواضعاً
لا أكذب
ولا أتجمل

المؤلف

السيرة الذاتية

- **الاسم**: سعد بن عبدالرحمن بن محمد البواردي.
- **الميلاد**: عام ١٣٤٨هـ بمدينة شقراء.
- يحمل في حياته شهادات ثلاث – شهادة ميلاده وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والشهادة الابتدائية لا أقل. ولا أكثر.
- يقول عن نفسه أنه طالب مبتدئ في الصفوف الأولى من مدرسة الحياة بقدر ما يعرف يزداد معرفة يجهله فيما لا يعرف.

❊ **اسهاماته الفكرية**:

- زوايا أسبوعية بصحيفة اليمامة تحت عناوين «**من النافذة**» «**الباب المفتوح**» «**مع الناس**».
- زاوية يومية بصحيفة الجزيرة تحت عنوان «**السلام عليكم**». توقفت.
- زاوية يومية بصحيفة المسائية تحت عنوان «**عالم فوق صفيح ساخن**».. توقفت بتوقف الصحيفة.
- زاوية يومية بصحيفة اليوم تحت عنوان «**نافذة على عالمنا العجيب**».. توقفت.

- زاوية أسبوعية بصحيفة الثقافية تحت عنوان «**استراحة داخل صومعة الفكر**» ما زالت قائمة.
- زاوية شهرية بمجلة الحرس الوطني تحت عنوان «**أفكار مضغوطة**» ما زالت قائمة.
- زاوية شهرية بالمجلة العربية تحت عنوان «**كلمات**» ما زالت قائمة.
- إلى جانب اسهامات متواضعة وغير ثابتة في بعض الصحف والمجلات المحلية والعربية.

❊ **الإصدارات:**

- صدر له اثنا عشر ديواناً شعرياً. خمسة عشر مؤلفاً نثرياً. وكتيب قصة قصيرة. إضافة إلى ثمانية وأربعون عنوانا لم تصدر بعد. إضافة إلى إصداره مجلة الإشعاع بمدينة الخبر عام ١٣٧٥هـ وتوقفت.
- تقلد الوظائف التالية: سكرتير التعليم الثانوي، مساعد مدير إدارة البعثات. مدير العلاقات العامة. إضافة إلى إدارة مجلة المعرفة وسكرتارية المجلس الأعلى للتعليم. والمجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب في وزارة المعارف.
- الملحق الثقافي للشئون الإعلامية في كل من لبنان. وجمهورية مصر العربية.

بدايات الأدبيات

- أول مدينة زرتها في حياتي عنيزه ١٣٥٨هـ.
- أول مدينة زرتها خارج الوطن البحرين ١٣٦٧هـ.
- أول كلمة نثريه كتبتها عام ١٣٧٤هـ عن الأدب والحياة.
- أول قصة كتبتها عام ١٣٦٨هـ تحت عنوان على قارعة الطريق.
- أول قصيدة عربية كتبتها عام ١٣٧٥هـ تحت عنوان «**سجين في عدن**».
- أول قصيدة شعبية كتبتها عام ١٣٨٤هـ تحت عنوان «**إصح يا نايم**».
- أول كتاب نثري مطبوع عام ١٣٧٨هـ تحت عنوان «**فلسفة المجانين**».
- أول كتاب «**قصصي**» كتبته عام ١٣٧٨هـ تحت عنوان «**شبح من فلسطين**».
- أول ديوان طبع كتبته عام ١٣٧٨هـ تحت عنوان «**أغنية العودة**».

كلمة مجلة الحرس الوطني

الأستاذ سعد بن عبدالرحمن البواردي أحد الأدباء والمبدعين الذين أسهموا بفعالية في الحركة الأدبية والثقافية في المملكة، بل هو رائد من رواد الأدب والإبداع والصحافة في هذه البلاد.

وهو كاتب وشاعر وكاتب مقالة متمكن، كما أنه ناقد عرف بعطائه، وساهم بقلمه في متابعة الأعمال الإبداعية، قصصية كانت أم شعرية.

ثم إنه المثقف المسؤول، أو المسؤول المثقف الذي تقلّد العديد من الأعمال والمناصب، وعمل في مجال الملحقيات الثقافية مدة طويلة في سفارات المملكة في الخارج. وقد أصدر أكثر من خمسة عشر كتاباً ما بين القصة والشعر والمقالة والنقد، ولديه أكثر من ذلك مما لا يزال ينتظر دوره في الطباعة والنشر.

نحن أمام شخصية غنية ومتعددة الجوانب، لا شك أن القارئ لسيرتها وما تحمله من مذكرات وذكريات وصور حياة، لا شك أنه سيطلع على تاريخ ثر لجانب من الحركة الثقافية للملكة يمتد لأكثر من ستين عاماً من العطاء الثقافي في شتى مجالات الإبداع والفكر.

ومجلة الحرس الوطني تعتز كثيراً وهي تقدم السيرة الذاتية لكاتبنا الكبير الأستاذ سعد البواردي على حلقات خصَّ هذه المجلة بها.

وسوف يلاحظ القارئ أن كاتبنا كعادته كان متميزاً في كتابة هذه السيرة، فقد تناولها بما يملكه من شاعرية وحس روائي وقصصي، وثقافة واسعة واستيعاب واعٍ لحركة التغيير الاجتماعي والفكري والسياسي في المملكة، انطلاقاً من شقراء، بيئة كاتبنا وقريته ومطارح طفولته وصباه..

مجلة الحرس الوطني بتصرف

جمادى الآخره ١٤١٥هـ نوفمبر ١٩٩٤م

يوم أن وُلدتُ

من رحم الأم الصغرى حيث كنا معاً السكن والسكان والسكينة.. إلى رحم الحياة الكبرى حيث الصخب.. والسغب.. والمعاناة..

بدأت الرحلة إلى أحضان المجهول بصرخة تجسدت فيها كل مخاوف الغد.. وتداعيات المستقبل..

صرخة فزع وانبهار يطلقها كل مولود تخلى عن حضن يحوطه بالدفء والحماية.. أو تخلى عنه ذلك الدفء ليجد نفسه رقماً صغيراً تائها في خانة البلايين الذين يعمرون بتواجدهم أو يدمرون بتواجدهم مواطىء أقدامهم كارهين.. أو مكرهين..

إنها قصة البذرة المفروشة في أحشاء الأرض. ما أن ينمو عودها متفتحا يعانق دفء الشمس.. ويغازل ضوء القمر حتى يتعرى على صقيع الخريف ولسعة الشتاء وقسوة الريح.

لا خيار أمام قادم كي يرسم لحياته الصورة التي تدغدغ أحلامه.. فالقارب الذي يمتطيه.. ويحتمي بجنباته دون مجاديف تحفظ له توازنه.. حتى وإن وُجدت فإن غضبة الموج وزلزلة الأحداث أكبر وأخطر من أن تصمد أمامها

قدرة المواجهة.. أو المجابهة..

الحياة لكل واحد منا حلم يتجذر في الأعماق إلا أنه ما يلبث أن يهتز.. وقد يتداعى على وقع الحياة وواقعها المليء بالمتناقضات.. والمتضادات وهي كثيرة.. ومثيرة وتبقى خميرة الإرادة وحدها السلاح الذي قد يصمد إلى حين.. وقد ينهزم إلى حين.. متكيفا مع الظروف من حوله.. متفاعلاً معها.. متعاملاً مع مؤثراتها وتأثيراتها.. تأخذ منه بقدر ما تعطي.. قد تعطيه كل شيء.. قد تأخذ منه كل شيء.. وقد تكون عادلة فتدع له البعض بعد أن تستلب منه البعض الآخر..

ذات يوم من صبيحة العاشر من شهر شعبان عام ١٣٤٨هـ واجهت عيناي النور مبهوراً مذعوراً كما هي حال كل وليد خرج من أسوار العتمة الحانية داخل رحم الأم.. إلى أسوار حياة تتصاعد، وتتصارع داخلها أنفاس محمومة مهمومة لاهثة..

ومن يوم إلى يوم.. ومن شهر إلى آخر.. ومن عام إلى عام..

ومن طفل تحمله أمه دون أن يقوى على حراك.. إلى طفل يحبو.. إلى طفل أكبر يلتقط الكلمات.. ويتحاور بالكلمات.

عبث طفولي.. وأشياء أخرى:

كانت أزقة البلدة «شقراء» وشوارعها الضيقة المتعرجة.. وبيوتها الطينية

المتلاصقة مسرح الحركة.. والعبث الطفولي.

كنا صغاراً.. أحلامنا كأحلام العصافير.. نصفق حين تزقزق.. نحلق بأمانينا الطفولية حين تطير.. نحاول أن نطير معها.. لا نعرف عن الذي نعيش فيه أكثر مما نعرف عن بلدتنا الصغيرة الوادعة.

بل إن أخيلتنا الصغيرة أفرغت في أذهاننا الساذجة صوراً مضحكة مفادها أن بلدتنا هي قطب هذا العالم ومحوره.. يدور في فلكها.. ينجذب لجاذبيتها.. ويتحرك لخدمتها.

لم تكن وقتها مدارس بمفهومها المعروف.. كانت هناك كتاتيب «شيحان» و«ابن حنطي» و«السليمي» كراساتها ألواح خشبية.. مدادها الصالوخ فلم نكن بعد تعرفنا على شيء اسمه «الطباشير».

تلقين جامد.. وعصا قصيرة غليظة لمن عصى.

كانت سراديب البلدة وأزقتها تجسد لنا الأشباح بعد انطفاء قرص الشمس كل نهار.. كانت تتردد على مسامعنا بحسن نية كلمة «عوافي الله» وكلمة «سم بالله» و«جاك السعلو» «بسم الله عليك» حين نتحرك داخل عتمة الليل دون ان نعي معناها فتزيدنا وحشة على وحشة.. لا مصابيح كافية في الطرقات تبدد العتمة.. أو تقلل من حلكتها.. باستثناء سراج هنا وآخر هناك على بعد تتراقص فتيلته خافتة.. على استحياء.. تزيد من وحشة المكان

ورهبته.

كان الصباح.. كل صباح.. عيدا أنتظره كل يوم على أحر من الجمر وفي شوق.. كيف لا.. ونحن – أطفال شارعنا – نلتقي لنلهو في براءة.. وأحيانا في شقاوة حلوة!

كان «الأولمبياد!!» الرياضي بالنسبة إلينا بدائيا.. إلا أنه مع تواضعه يشبع الرغبات لدينا، نملأ به كل أوقات الفراغ.. ومعظم ساعات نهارنا متخمة بالفراغ.

هوايتنا اللعب

الكعوبة – الدوامة – لاندية – كرة الشراب – شريخ الشرخ – طميما الأعمى – الطيبان – الدنانه – المغاوج، وهي نموذج طفولي شقي للعبة القمار عملتها (البيزة) – المْرَامح وهي نموذج للغزو بين أطفال شارع وآخر.. والمدهش في الأمر أن كل فريق، وفق اتفاق مسبق، يعطي حصانة لأحدهم.. وهي ميزة تكفل له أن يرمح – بفتح الياء – ولا يُرمح، بضمها، تماما كما هي الحال مع بعض الدول في عالمنا المعاصر.. تعتدي فلا تدان.. وتحتل فلا تعاقب! وتَضرب فلا تُضرب..!

وجميعها ألعاب انقرضت، أو كادت، كما هي الحال بالنسبة لبعض أكلاتنا الشعبية ذات النكهة الخاصة والطعم المميز، ومنها: المرقوق – مراصيع الغالي – الجريش – المصابيب – مراصيع التنور – المخامير – الحنيني – العفيس – الملتوت.

هوايات لها مخاطرها

ليس هذا وحده الذي كنا نقتل به سويعات النهار.. كانت لدينا هواية صيد الطيور، أما سلاحنا فكان «النباطة» و«الحجر» رقعة الهواية كانت متسعة إلى درجة الأضحاك.. «الأبارص» كانت أحد أهدافنا.. بل أن فينا من تجاوز هذا الحد لتمتد يد أذيته إلى غيره.. ليجعل من قدح الحليب القابع عند شرفة من الشرفات هدفا مغريا يتربص به.. ويسكب ما في جوفه.

أما الأشق.. والأشقى.. الأكثر استجابة ومتعة رغم ما يكتنفها من مخاطر فهي اصطياد الجراد الذي تغزونا أسرابه بين سنة وأخرى يلتهم الأخضر واليابس.

إن رحلة الاصطياد تأتي غالبا في الهزيع المتأخر من الليل.. وبعد أن يبلغ البرد القارص مداه.

كل واحد منا يحمل «خيشته» أو «قفته» ويتجشم عناء الدرب.. أودية ومفاوز.. بضعة أكيال تكلفنا الكثير.. الأقدام تحوطها «الزرابيل» وإن لم توجد فنعال.. وجميعها صنع محلي. الجراد بطبيعته يبحث عن الدفء.. يحتمي تحت الصخور الرفيعة.. وبين أوراق شجر «الحرمل» وداخل الجحور إن

وجدت.. وهي كثيرة وموفورة في منطقة «الصفرى» التي طالما كانت المحطة المفضلة لأسراب الجراد.

لابد للصياد من مد اليد لاقتناص صيده.. بل القدمين اللتين لا تحتاجان إلى مد.. مغامرة غير آمنة.

هناك الثعابين.. هناك العقارب.. لابد من الحذر.. وإن كان الحذر لا يغني أبدا من القدر.. ولا عنه.

لقد دفعت الثمن مقروصا ذات ليلة.

لدغتني عقرية أفرغت سمها في قدمي.. أحسست أن قدمي ليست معي.. لم يخلصني من الأزمة غير صديق تحمَّلني فحملني بعد أن امتص السم بفمه.. وتفَّه نحو الأرض.. على أكتافه كان حملي ثقيلاً.. وطويلاً.. ولأن الظلام مطبق فقد اختلطت عليه الاتجاهات وبدلاً من أن يوصلني إلى داري شرقاً.. اتجه بي شمالاً إلى (الحسيان)، وانتهت رحلة العقرب بضحكة، إلا أنها ضحكة كالبكاء.

ورغم هذه المخاطر فإن كل شيء يهون أمام مهمة الصيد في ليل داكن.. إن وجبة (مراصيع غالي).. أو «مرقوق» تزينها حبات مختارة من «مُكِنْ» الجراد وليس من زُعيرِه، من «أنثاه» وليس من «ذكره» تعد صفقة رابحة تهون أمامها لسعة عقرب حتى ولو كانت مؤلمة.

أبي

«شقراء» مسقط رأسي تمثل العاصمة الاقليمية لمنطقة الوشم.

أبي – رحمه الله – كان الأمير لتلك المنطقة.. وبحكم مسئوليته الإدارية فقد كان المقصد للزائرين، ومن انقطعت بهم سبل العيش ويحتاجون إلى طعام.

كثيرون الذين تعد لهم وجبات الأكل غداء وعشاء.. وكثيرون أولئك الأفراد من البادية الذين يلقون بنعالهم تحت فتحات باب البيت إشعاراً بتواجدهم.

كان طبيعيا أن تختلف الموائد باختلاف مستويات الضيوف ومواقعهم.. فمن «صِيَانيْ» كبيرة مليئة بالرز واللحم.. إلى أخرى اصغر حجماً طعامها التمر والأقط.. أو التمر والسمن.

قلة ذوق

ليس هذا هو المهم.. والفاتح للشهية بالنسبة إليَّ.. ذلك أنني حتى العاشرة من عمري عزوف عن تناول أية وجبة ذات قيمة حرارية. أو بروتينية.. أو نشوية.

كنت أعاني من نقص حاد في الكلسيوم.. شهيتي الخائبة مفتوحة على مصراعيها لتناول الطين!.. وبالذات الطبقات الرقيقة منه..

إن مغارة صغيرة تتسع لقط صغير حفرتها بأظفاري، وازدردتها بأسناني.. تركت بصماتها واضحة فاضحة حول باب الدارة الخارجي.. ربما إلى اليوم.. لا أدري.

لماذا؟!

وبمناسبة الأكل ومشتقاته فلقد تعودنا، كما هي عادة من سبقونا، أن نطعم ما يمكن أن يرفضه أبناؤنا اليوم بعد أن اتضحت الرؤية.. وتباينت المفاهيم والأذواق:

- الجراد وهو أحد فصائل الحشرات.
- الضب وهو فصيل من الزواحف.

- الجربوع وهو فأر بري لا يتمايز عن غيره.

وتأتي قصة «الحَزْرَة».. الحزرة لها حكاية تسد نفس الجائع.. ناهيك بالشبعان.

ما هي الحزرة..؟!

إنها مجموعة مصارين وقطع من الشحم تحشر داخل كرشة.. ترش بالملح ثم تعلق طويلاً، وتبدأ صلاحية التهامها يوم أن تنخرها الديدان من كل جانب. إنها تضاف وفي شح؛ لغلاوتها، إلى أكلة المرقوق!! وبالهنا والعافية.

أما «القفر» وما كان يعرف قديما بالقديد فإنه يختلف تماماً عن كل الذي سبق. إنه شرائح من اللحم المجفف منشورة بإحكام على حبل ممدود معلق حتى لا تطالها القطط والفيران.

إنها الألذ والاشهى من سواها. ولأنها الأصح.

ولأن الحديث عن القديم يجرنا إلى ما بعده.. إلى يومنا هذا، تظل الشهية الآدمية مفتوحة على ما هو أكثر من الضب والجراد والجربوع والحزرة.. انها تلتهم الافاعي والصراصير والكلاب وأحياناً «لحوم البشر» دون جوع منهم ودون دموع عليهم، لأن شهية الالتهام تأتي أحياناً بحجم شهية الانتقام.

شقراوي في عنيزة

في الحادية عشرة من عمري فكر والدي - رحمه الله - أن يبعث بوالدتي إلى أهلها في بلدة «ثرمداء». كان رحيما بي.. ولكي أكون بعيدا عن لحظة فراق أشار إلى المرحوم عبدالله الطويل أن يأخذني معه إلى مدينة عنيزة - باريس نجد - كما تسمى ويحق بحجة إدخالي إلى المدرسة هناك.. أخال ذلك العام ١٣٥٨هـ..

في عنيزة كنت في ضيافة المرحوم عبدالرحمن بن حنطي ولمدة أكثر من عامين اثنين.. شملني خلالهما برعايته كما لو كنت ثالث ولديه عبدالله وحمد يرحمهما الله.

عرَفني زملائي في المدرسة بالشقراوي نسبة إلى بلدتي.. عدت إلى شقراء.. وقد عادت مياه الأسرة إلى مجاريها.. الأم والأب تظلهما دار واحدة في حب.. وبقايا من عتب..

الفشل الناجح

وقتها افتتحت أول مدرسة ابتدائية في شقراء كان ذلك عام ١٣٦١هـ على ما أحسب.. عين مديرا لها الشيخ الراحل عبدالمجيد حسن.. ضمتني كما ضمت عديداً من أقراني إلى صفوفها.. كانت تتميز بإدارة حكيمة صادقة.. وبأساتذة أجلاء معرفة وتربية أذكر من بينهم عبدالله بن خربوش، إبراهيم الجهيمان، سويلم نافع، إسحاق كردي.

كانت الوجبات الدراسية تتسم بالدسامة والعمق.. أعترف أني كنت من بين القليلين من أقراني ألهث في مؤخرة الفصل تحصيلا واستفادة..

ويوم أن يأتي الامتحان لكي يكرم المرء أو يُهان فإنني أجتازه بصعوبة وشق الأنفس.. ولولا مكانة أبي.. وتقدير الآخرين له لما نجحت.. أو على الأقل لكنت في ذيل القائمة.

يوم أن فقدته

في الخامسة عشرة من عمري مات أبي منتصف عام ١٣٦٣هـ عن عمر يناهز السبعين وكان يؤدي واجبه رئيسا لفريق «العمالة» التي كان يقوم بمهامها كل عام لتحصيل زكاة الإبل والأغنام من البادية..

في طريقه من الشرائع على مقربة من مكة المكرمة إلى الرياض نزف قلبه دماً.. وفي دار الضيافة بحلة الأحرار – العبيد – سابقاً – حلت أيامه الأخيرة، وكنت إلى جواره.. وقبل أن يلفظ أنفاسه بساعات كانت خطواتي المتعثرة تبتعد عنه مرغمة لا بطلة.. فقد انتزعني البعض إلى مكان قصي بمدينة الرياض حتى لا أشهد لحظات النزع الأخير.

عدت وحيداً

عدت إلى بلدتي وحيدا بلا أب.. كانت هموم الدنيا تحجب عن عيني ما حولي.. فاليتم المبكر للصغار دون سند، لون من ألوان العذاب.. والاختبار الصعب.

لقد تحولت فجأة إلى عائل أسرة أفرادها يعدون الثمانية.. وكلهم صغار باستثناء أم الجميع.. لابد من مواجهة الحياة بقدر من الإيمان.. والصبر.. والتحمل..

حين مات أبي تكشف ما وراء الستار.. لقد كان مديونا وكان علينا أن نرد الدين للدائن.. فالدَّين على الميت لا يحتمل الانتظار..

ولكن من أين؟!

لا نملك نقودا لردها.. كل ما نمتلكه بضعة أكياس من الأرز والسكر.. وبعض التمر.. مما كان يحرص على تقديمه لضيوفه..

ولحسن الحظ فإن ما لدينا كان كافيا لرد الدَّين.. مع بقايا من البقايا تسد الحاجة إلى حين..

مشروع «الجراوة»

في بلدتي شقراء، ثلاثة أسواق – أطلق عليها كلمة أسواق مجازاً.. أكبرها مساحة سوق «حليوة» يليه مساحة سوق «المجلس» وهو الأكثر حيوية ونشاطا.. أما ثالث الأسواق وهو صغير الحجم لا تتجاوز دكاكينه الصغيرة أصابع اليد فهو سوق «المجباب» وهو الأقرب إلى دارنا.

جربت أن أخرج وأفرج عن ضائقتي المالية بدافع من المغامرة غير مأمونة الجوانب والعواقب.. جربت أن أضيف إلى قائمة البائعين الذين يرتزقون على باب الله بائعا واحداً جديداً هو أنا – وأعوذ بالله من كلمة أنا – اشتريت كيس «جراوة» أي كيس بطيخ بريال واحد.. وبسطت به.. أفرغت الكيس جروا جروا.. واتخذت من كيس الخيش بساطا صففت عليه البضاعة!! لعل وعسى.. فربع ريال أو نصف ريال أكسبه ربحا يساعد على متطلبات الحياة.. ويبدو أن الخطوة الجريئة التي أقدمت عليها لم ترق لأحدهم باعتبارها شيئاً معيبا وغير مألوف في مجتمع محافظ يزن الحركة بمعيار الحمولة والقبيلة..

لقد ذهب ذلك الشخص الطيب إلى أحد أقربائي ممن لا أملك لإرادته صدا أو ردا يزف إليه الخير الصاعق..

إن هي إلا بضع دقائق حتى فوجئت بذلك القريب يقف أمامي كالبعبع وقد تجهم وجهه وصرخ في وجهي في حدة.. وعلى مسمع من البعض قائلا:

- ما تستحي على وجهك.. ولد أمير وتبيع جراوة.. قم قامت عصبك.. وتثنَّتْ ركبك..

لم يكن أمامي إلا الطاعة مكرها.. بعد أن تمتمت بعبارة مختنقة غير مسموعة داخل جدران حلقي:

- وماذا في البيع والشراء.. حتى ولو كنت أميراً.. حتى ولو كانت بضاعتي جراوة..؟

أعترف أن موقفي كان مهزوزاً ضعيفاً مستسلماً إلى درجة أنني لملمت أطراف الخيش.. حملت ما فيه من بطيخ إلى داري وأنا أداري دمعة مهزومة انسابت فوق خدي.. ومن يومها.. وأنا أمر على السوق المجباب أكاد أداري وجهي خجلا من الذين شاهدوا معركة الجراوة.

أمٌّ عصامية

من حسن حظي أن استشعاري باليتم تلاشى بسرعة.. فمن يملك أما عصامية كأمي لا يطاله القلق.. ولا الوحشة.. لقد أفردت لنا تحنانها.. وفَرَدت لنا جناحيها.. وأوسعت لنا حضنها الرؤوم.. فتحت لنا قلبها حبا وحنوا، كانت لنا أما وأبا في آن واحد.. وهذا ما أنساني خشية المجهول.. وفجائيات المستقبل.. كان الإيمان بالله قويا.. ومن يتملك الإيمان قلبه تنطوي أمام خطاه مفاوز الدرب.. ومسالك الحياة..

خلت أن موت أبي بالنسبة إلي.. وبالنسبة إلى الصغار من حولي الذين أتحمل مسؤوليتهم وحدي.. خلت ذلك نهاية العالم.. لم أشعر أن فرجا قريبا سوف يطرق باب دارنا..

لقد جاء الفرج.. وطرق الباب..

جاء الفرج

للحق فإن الدولة مشكورة تقديرا لرجل أدى قدر استطاعته في خدمتها لم تنس أطفاله وهم في أمس الحاجة إلى من يأخذ بأيديهم.. ويعينهم على نوائب الدهر..

لقد منحتهم شيئاً من تمر.. وشيئاً من أرز.. وشيئا من سكر كمخصص ثابت يتلقونه كل عام.. ليس هذا فحسب.. بل إن شرهة سنوية كنت أتسلمها على مدار العام حين أنوِّخ على العاصمة الرياض مع من ينوخون ممن ثبتت لهم القواعد السنوية.. وهي قليلة في حجمها آنذاك، إلا أنها كبيرة في قيمتها..

ثلاثون ريالاً عربيا (فضة)، يضاف إليها «بشت» أي (مشلح) أي «عباءة» هذا ما يخصني وحدي، إلى جانب آخرين ارتبطت أسماؤهم بأبي إبان حياته..

تشابه الأسماء

ولقصة المناخ حكاية طريفة سببها تشابه الأسماء بين شخص وآخر..

في أحد الأعوام التالية أناخ أحد أقربائي.. وكان يحمل اسمي بالكامل.. أناخ كالعادة وحين سألوه عن اسمه.. لم يكن حينها توجد حفائظ نفوس.. ولا بطاقات شخصية.. حين سألوه قال: أنا فلان الفلاني.

استقبلته دار الضيافة كما هي الحال في هذه المناسبة بالنسبة إليَّ.. وفاز وقتها بالمعلوم والمقسوم.. ومن يومها وقد علمت بما حصل لم أفكر أن أنوخ من جديد.. ولا أن أجرح تواضعه.. لقد كان أحوج مني.. بل واحق مني.. رغم حاجتي إليها في ذلك الوقت.

يساقون إلى العلم رغم أنفهم

ثلاثة أعوام هي عمر التحاقي بالمدرسة الابتدائية في شقراء.. اجتزت فيها فصول الثالث والرابع والخامس بصعوبة.. فكر المغفور له الملك عبدالعزيز في وضع شباب نجد.. وتخلفهم عن ركب العلم.. وعدم قدرتهم على المشاركة الفاعلة في مؤسسات الدولة وهي المحتاجة إلى توطيد أركانها بالكفاءات المؤهلة علميا وثقافيا.

وكانت فكرة إنشاء مدرسة «دار التوحيد» بمدينة الطائف.

كانت النواة الطلابية لهذه الدار متجسدة في ست مدن: الرياض العاصمة، بريدة وعنيزة من القصيم، المجمعة من سدير، شقراء من الوشم، الهفوف من الاحساء.

ولكي تفتح دار التوحيد أبوابها دون إبطاء وفي الوقت المحدد فقد تم الاعداد لذلك: المبنى الدراسي، السكن، الجهاز الإداري، المتطلبات المعيشية والمادية.

أوعز الملك عبدالعزيز إلى مدير المعارف وقتها المرحوم الشيخ محمد ابن مانع باستعجال إلحاق الطلبة لانتظامهم في الفصول الدراسية مطلع العام

الدراسي ١٣٦٤هـ.

تبلغت الجهات ذات الاختصاص بالرغبة الملكية.. انتشر الخبر.. تسارعت اللجان لاستحضار الطلبة.. وهنا قامت الدنيا ولم تقعد.. وبالذات في بلدتي شقراء.!

كانت العزة بالاثم تحكم عقول البعض وتسيطر عليها.. النظرة القبلية الضيقة..

- كيف نرسل أولادنا.. يغتربون! يتعلمون!

ثم توظفهم الدولة لديها ونُحرم منهم!!

كان الفهم البليد السائد حينها أن الوظيفة شيء ناقص.. إن لم أقل معيبا!.

كانت الحرية من منطلق الوهم تظل ناقصة إذا ما خرج الابن عن دائرة أبيه في محيط العمل التجاري أيا كانت الدوافع والأسباب!

لهذه العوامل مجتمعة جاءت ردة الفعل لإلحاقهم بالدار قوية مدوية.. ومحتجة!

أكثر من سبب واحد للاعتذار عن قبول الدعوة من لدن أولياء الأمور.. وربما أيضا من بعض الطلبة: هذا يدعي موت أبيه.. ذاك يزعم مرض أمه.. وذلك يتحدث عن عجز والده، وحاجته للبقاء إلى جانبه..

أثارت كل هذه التعللات والاعذار غير المبررة.. غير المنطقية، ثائرة الملك عبدالعزيز.. زادته إصراراً على كبح جماح الجهل الذي يعشعش في

الأذهـان.. وكـان الأمـر الـصارم الحـازم بتواجـدهم أيـاً كانـت التوسـلات والمعاذير..

أخـذنا المرحـوم الـشيخ محمـد البيـز في رحلـة الاغـتراب الأولى إلى الطائف.. كان ذلك قرابة منتصف الستينات من الأعوام الهجرية.

كنا مجموعة لا بأس بها.. تحضرني منهم هذه الأسماء – معذرة لمن نسيت:

المشايخ، والأساتذة:

صالح الحصين، سعد أبو معطي، عبدالله بن عبدالرحمن بن إدريس، أحمد الشلفان، محمد إبراهيم العيسى، عبدالرحمن الخلب، عبدالعزيز المقرن، عبدالعزيز العيفان، عبدالله وعبدالرحمن العبدالكريم، عبدالعزيز المرزوق، عبدالرحمن بن فهد البواردي، ناصر ومحمد السدحان، محمد الفايز وآخرون.

إضافة إلى زملاء آخرين انضموا إلى القافلة الطلابية من المناطق الأخرى.. أذكر منهم كزملاء، في نفس الفصل، المشايخ والأساتذة: محمد الجبير، سعيد الجندول، فهد المبارك، عبدالله بن خميس، عبدالعزيز آل الشيخ، عبدالله المبارك، عبدالله الفالح، سليمان الشلاش، عبدالله الخزيم، محمد البسام، محمد بن ربيعة، عثمان السيار، عبدالعزيز وعبدالمحسن التويجري.. وآخرون لم تسعفني الذاكرة بذكر اسمائهم.

كان كل شيء مهيأ لاستقبال الطلبة..

في منطقة «قروى» كان المأوى؛ دارة جديدة جميلة للسكن، وأخرى محاذية لها للدراسة.. وخدم وحشم.. وموائد تحمل ما لذ وطاب من الطعام والشراب.. ليس هذا وحده بل إن مبلغا نقديا من المال نطاله مع إطلالة كل شهر..

قامت دار التوحيد، أول ما قامت، على أكتاف مدير هو المرحوم الشيخ بهجت البيطار، يساعده أساتذة أجلاء.. يحضرني من بين أسمائهم المشايخ: عبدالله الخليفي، عبدالله المسعري، أمين فوده، والأساتذة يسار وعاصم البيطار، نسيب المجذوب.

ولأن البعض منا – نحن الطلبة – ما زال مدفوعا برغبة أهله، فإن روح التمرد لديه ما زالت قائمة ترفض التعامل مع الواقع حتى ولو كان مشرقا مشرقاً يفيض بالرخاء والأمل، لأنه جاء نتيجة إكراه.

أعوام ثلاثة قضاها البعض بين جدران المدرسة على أحر من الجمر.. وعلى مضض.. تحكمهم نزعة المشاكسة.. وتتحكم في علاقاتهم بالدراسة والمدرسين..

كانت الاضرابات.. ولا أقول الاضطرابات، تتوالى بين حين وآخر.. أما الأسباب فمضحكة باكية في فصولها لا تستحق أن تذكر.

لم تفلح في حق المتمردين.. الخارجين على الطاعة.. كل أسباب التهدئة.. والترضية؛ لسبب بسيط هو الرغبة الجامحة في العودة.. الانفكاك من أسر الاغتراب المزعوم!! ربما أيضاً – وهذا جائز – الابتعاد عن شبح الوظيفة الموعودة.. أي (الخدمة) وهي في عرف التصور القاصر آنذاك، مدعاة للنقيصة.

بلغ السيل الزبى، حيث ضاقت الدار بما رحبت. فلا المشاركون هدؤوا، ولا القائمون على مهمة التدريس ارتاحوا.. وكان لابد لشيخها الفاضل البيطار من أن يرفع يديه في دعوة صادقة من أعمق أعماقه يشير بها إلى أولئك الذين أثاروا حفيظته.. وشاغلوه فأشغلوه..

لقد دعا عليهم أن يبددهم الله تحت كل نجم.. وهكذا كان، فبعد انقضاء العام الدراسي الثالث (الفصل الثاني المتوسط)، وبعد عودة الطلبة إلى ديارهم، انفرط حبل العقد المشاكس؛ تناثرت حباته يمينا وشمالاً.. وشرقا وغربا.. وعاد من جديد من عاد ليستكمل مشوار سيره، وتخلف من تخلف بعيدا عن الدار.. كنت أحدهم يا للخجل!

كنت أحدهم

كنت ذلك الفتى الشقي الذي أضاع في الصيف اللبن فتخلف عن ركب الدراسة وندم.. ولات ساعة مندم.

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

وللحق، فأنا الذي أضعت نفسي.. ولم يبق أمامي غير باب المجهول كي أطرقه.. فهل يفتح؟!

وإذا ما فتح فهل تتسع مساحة الفتحة لخطاي كي أدخل؟!

وأي مجهول ينتظر خطاي بعد أن يستقر بي المكان؟!

هذا ما سوف أعرضه وأتعرض له من خلال هذا الشريط من الذكريات بعد أن توقفت، وتجمدت خطواتي الدراسية عن جهل.. وقبل أن تطال كفاءتها المدرسية.

البحث عن مدخل

كل ما يهمني وقد تصرمت حبال علاقتي بالدراسة والمدرسة أن أبحث عن عمل.. أي عمل أكسب منه.. فالمستقبل مرهون بالاكتشاف والبحث، والتواصل، والاغتراب، والتحمل.

لابد للأفواه الجائعة من أن تأكل.. صحيح أنها لن تموت جوعاً ولكنها كغيرها تتطلع إلى واقع أفضل..

ثم إن المستقبل غير مأمون.. فهناك حياة وموت.. وهناك استطاعة وعجز.. وهناك نجاح وفشل لماذا لا أجرب؟! وقد جرَّب من جرَّب ونجح.

في مسقط رأسي لا مجال لأية فرصة عمل.. لقد جربت بيع البطيخ مرة واحدة وصدمت.. لن أعيدها مرة ثانية لو قدرت لن أجرب غيرها.. لابد وأن أذهب بعيداً عن أنظار الذين يستصغرون العمل.. وينظرون إليه من خلال ثقب عائلي مريض وضيق حين لا يأتي ذلك العمل على هواهم..

وَجَدْتُها.. ثم ضاعت

شبه عام بعد عودتي من الطائف وأنا أتحرى الصدفة السعيدة.. أستشرف بشائرها.. وجاءت من جار لي تغرَّب عن بلده.. عمل موظفاً تجاريا بمدينة الهفوف..

لقد عرض علي أن أسافر معه إلى هناك لأعمل حيث يعمل هو.. كان هذا في أوائل عام ١٣٦٩هـ، لم أتردد في الاستجابة لحظة واحدة. حزمت حقيبتي الصغيرة وما أظنها تحتاج إلى حزم فهي شبه خاوية لأنها شبه خالية..

كانت «الرياض» المحطة الأولى الموصلة إلى الاحساء.. وكان الطريق وقتها ترابياً غير ممهد تجتازه سيارات النقل بصعوبة بالغة.

عقبة «مغرزات» في الانتظار.. «سبع الملفات» ديراب يحتاج إلى استعداد.. دفع دواليب بعد أن تغرز، دفعها بالأيدي وبالاكتاف إن أمكن.

ومع كل هذه العقبات كان للجهد الشاق مذاق مستساغ لأنه لون من ألوان المقاومة والتحدي يواجه به الإنسان ظروفه الصعبة..

ومن الرياض إلى الهفوف جاءت الحلقة الثانية من رحلة الاغتراب تجربة سابقتها امتصت الكثير من الرهبة.. والقلق.. والتردد.

كان زاد السفر جراب تمر.. وشيئاً من المعمول الذي يتشكل من تمر وأقط (عبيط) نسد به عواء بطوننا حين تجوع.. وما أكثر ما تجوع..

في بيته حط بنا المقام

هو المرحوم «محمد بن سيف» أحد تجار المدينة.. وأفاضل رجالاتها.. كان العمل الذي أفرغت له يتمثل في شيء واحد لا أقل ولا أكثر.

لقد وكل إلي مهمة الميزان كي أحدد وزن البضاعة وأضبطها.

أما البضاعة التي كانت جزءاً من مهمتي.. إن لم أقل كل وقتي لأنني لا أكاد أبرحها فتسمى «هيز» وتتمثل في فصيل رديء من أنواع السمك المجفف الذي يُقدم علفاً للحمير.. تصور.. ما لون المهمة.. إنها سهلة ميسورة لا تحتاج إلى آلة حاسبة ولا إلى كبيوتر.. ولا إلى عقل الكتروني.. إنها لا تكلف أكثر من مراقبة شعرة الميزان.. أين تقف! ومع كل هذه البساطة فشلت فشلا ذريعاً في مهمتي..

خسرت بعد أقل من شهر الوظيفة.. ومرتبي الذي اتقاضاه وقدره ثلاثون ريالا.

لم يعد لبقائي في الهفوف من معنى، لقد أشار علي صاحبي - وحسناً أشار - أن أتوجه إلى مدينة «الخبر» بالمنطقة الشرقية حيث «البترول» و«النقود» و«التجارة» و«الوظائف».

تحقق الحلم

جاءت استجابتي سريعة لنصيحته.. وهناك حيث يعمل أقاربي وجدت الملجأ الذي أركن إليه وألوذ به بعد لحظة فشل.. وإحباط.

إن هي إلا أيام وبمسعى حميد من أحدهم حصلت على عمل سعدت به.. كان نقلة في حياتي العملية لا أقدر على إنكارها.

العمل لدى المرحوم الشيخ عبدالرحمن القصيبي.. أما الوظيفة فلا ملامح محددة لها.. «سُوقٍ سَاقٍ، شِعْبَه» كما يقول المثل العامي.

إنها تبدأ من الخدمة العادية.. وتنتهي بالوكالة لإدارة المكتب في غياب ابنه الصديق فهد القصيبي يرحمهما الله.

كانت استجابتي واستيعابي له أكثر حظاً.. وأكثر رغبة.. ولأن نشاطات المكتب متعددة فقد جاءت دائرة الاتصالات بسعة تلك النشاطات وتعددها.. مما أكسبني معرفة الكثيرين من وجوه المجتمع.. ورجال الأعمال.

كانت الوظيفة بالنسبة إلي طفرة كبيرة لم تدر بحسباني. فالراتب الشهري بضع مئات بعد عدة سنوات.. والسكن مجاني.. ومصابيح الكهرباء تبرق لبضع ساعات كل ليلة من مُولد كهربائي خاص يفيض النور والحياة لأول مرة

داخل السكن.. ولأول مرة تكتحل عيناي بزرقة مياه الخليج العربي.. ولأول مرة في حياتي تشدني قوالب الثلج الزجاجية بمنظرها الشهي.. ولأول مرة أرتشف جرعات الماء الممزوجة بحبات الثلج.. ولأول مرة في حياتي أكتشف الهواء البارد المنطلق من فتحات التكييف وهي تحيل مكاتب أرامكو من صيف إلى شتاء.. ولأول مرة أشهد عالماً جديداً غير عالمي الذي تعودت عليه وألفته.. رجال رؤوسهم عارية.. وآخرون تحجب شعور رؤوسهم قبعات.. نساء بلا شيال.. شعور تتدلى على الكتفين دون غطاء.. عيون ذات ألوان مختلفة.. بشرات تنضح بالبشر وتضج بالصحة.. وجوه ذات مسحة وردية لم يخربشها «جدري» ولم تمسْها «حصباء» ومدينة جديدة توزعها الشوارع طولا وعرضا.. لقد أحسست أن عمراً جديداً قد وُلد.. بدأت ملامحه تتشكل.. كيف لا.. وقد أبدل الله من حال إلى حال..

الماء القراح الممزوج بقطعات الثلج الشفاف، عوضاً عن ماء «القربة» و«القرو».

اللمبة الكهربائية بدلا من «الدنان» و«السراج» و«الإتريك».

لا شك أنه عالم جديد يتطور.. ويتغير.

إلا أن شيئاً واحداً طرأ على حياتي الجديدة ضقت به فما عرفته وما ألفته.. رطوبة لا تحتمل تخنق الأنفاس.. ومن أين لي مواجهتها حتى ألوذ إلى

فـراشي؟ لابـد مـن الهـروب.. ولكـن إلى أيـن؟ والبعـوض بـدوره يطـاردني بلسعاته الحادة الحارة.

كيس للوقاية

إذا لم يكـــن الا الأســـنة مركبـــاً

فـــما حيلـــة المـــضطر إلا ركوبهـــا

والحيلة ألفيتها في كيس مخيط أشبه بالكفن بطول القامة اتقمصه حتى لا يجد البعوض سبيله إليّ.. وعلى كثبان رملية يُطلق عليها «الطعوس» تقع بمحاذاة منطقة «الصبيخة» جنوب مدينة الخبر كان الكثيرون يهرعون.. يمددون أجسادهم وقد التفُّوا بالكيس الواقي.. وقد افترشوا ما أمكن فرشه.. ولأن الطل يتساقط كهتين المطر فإنه لابد للواحد منا أن ينتزع بقوة ذلك الفراش المثبت بالطبقة الرملية كما لو أنه شُدّ إليها بمسامير.. لأن طبقة من الرمل التصقت به تكفي لردم حفرة..

ما علينا.. فلكل مناخ ضريبته.. لقد تأقلمت مع تلك الضريبة إلى حين.. إلى أن جاء الفرج.. إنه أول مشروع إنارة لمدينة الخبر.. لقد تحركت المراوح بعد طول انتظار.

أول رحلة خارجية

سنوات.. وخطرت ببالي فكرة أول رحلة خارج أرض الوطن.. كانت إلى البحرين.. إلى جزيرة اللؤلؤ.. إلى «حليووه» كما يطلق عليها البعض.

عبر «لنش» صغير قديم يحركه موتور متقادم أخذني التيار مع من أخذ.. كانت لعلعة الصوت المقرونة بالدخان تنازع اسماعنا فتفرغ في فراغاتها مزيجاً من الضيق.. والبهجة.. اللنش يتحرك في بطء.. الأمواج المسالمة تغازله ثم ما تلبث أن تخاتله من جديد اقتراباً وبعداً قرابة الساعات الثلاث.. وعلى مرسى جزيرة «المحرق» أسدل الستار على مسار الرحلة.. راح كل واحد من رفاق السفر إلى سبيله..

بين نقطة البداية.. ونقطة النهاية كان البون شاسعاً.. «الخبر» التي بُهِرتُ بها قياساً لما سبقها.. هذه المدينة بدت أمامي قرية صغيرة.. وقديمة.

- أين منها تلك المباني الشاهقة؟!
- أين منها تلك الدارات الأنيقة؟!
- أين منها تلك الفنادق الفخمة؟!
- أين منها تلك المتاجر الواسعة الكبيرة؟!

- أين منها دارات العرض السينمائي التي أشاهدها لأول وهلة؟!

ولأنني أتوق إلى دارات العرض فلقد سارعت إلى دار عرض سينمائي مكشوفة دون سقف لأرى لأول مرة في حياتي فيلم «عنتر وعبلة».

ولأول مرة في حياتي أذوق طعم الأيس كريم.

يا له من مشهد لا ينسى..

ورحلة ثانية

ولأن السفر يغري بالسفر.. اكتشافاً لما نجهل.. فقد تحركت لدي غريزة مغامرة أخرى أكثر محطات.. وأبعد مسافة.. الكويت.. فالبصرة.. فبغداد.. فدمشق.. فبيروت.

لقد طالت خطاي كما يقول العامة.. وقتها كانت النقلة الحضارية بمفهومها الحاضر لم تبلغ شأوها.. إلا أنها بالقطع قطعت شوطاً لايستهان به..

ولأن الصور أمام مسافر فطري من الصحراء كانت بالغة الايحاء.. وفجائية.. فقد رسخت الكثير الكثير من المشاهد الجديدة التي ما برحت عالقة في مخزون الذاكرة.

لأول مرة أشهد بأم عيني أنهارا ممتدة تروي بمائها العذب عطش الحقول.. وما عطشت.. وللوهلة الأولى أحرك قدمي عبر جسور معلقة تفصل بين شطرين من مدينة واحدة..

وللمرة الأولى أحسُّ بزحام المدن وصخبها.. وضجيج العربات.. والفرق بين عادات وعادات..

ولأول مرة أتسلق قمم الجبال المغطاة بالخضرة والنماء.. وألمح بياض الثلج عن بعد وهو يغطي هامات الأرز.. وأتحرك وسط الغابات الوارفة الظلال دون ضياع أو فزع..

ولأول مرة أعود إلى «الخبر» وقد اختمرت في رأسي وتجسدت صور جديدة لعالم كان بالنسبة إلي على الأقل غيبيا.. وغائبا مجهول الملامح والسمات.

نعم.. عدت والعود أحمد إلى رأس عملي.

مفاجأة غير سارة في انتظاري

بين عام وآخر كنت أقضي إجازة السنة في مسقط رأسي حيث تقيم الأسرة..

ذات يوم.. وبدون مقدمات تلقيت رسالة صيغت بعبارات رقيقة مهذبة تستحق الاشادة.. فحواها ما يلي:

«يؤسفني أحاطتكم الاستغناء عن خدماتكم التي نشكركم عليها.. مع الأمنيات بالتوفيق».

لم أُصطدم كثيراً لهذه الرسالة المفاجأة غير المتوقعة.. الأرزاق بيد الله.. كان مصدر راحتي النفسية أنني لم أقصر في واجب.. لم أتخل عن مسؤولية.

أما الاستغناء فهذا شأنهم.. وذلك عملهم.. وتلك وظيفتهم.. وقرارهم.

لكل ضعف لطف

«وجدتها» كما يقول «ارشميدس».. وجدتها وقد فشلت في أول وظيفة وكان الطرد.. وفي ثاني وظيفة حيث اجتهدت وكان الاستغناء.

إنها النقلة الثالثة في خط سير الوظيفة. فلتكن لي معها أيضاً التجربة..

قد أنجح وأستمر.

قد أنحج ولا أستمر.

وقد أفشل وأستمر.. أو لا أستمر.. ذلك أن الحياة بمفهومها فشل يؤدي إلى نجاح.. ونجاح قد يؤدي إلى فشل بعامل الحظ.. ونجاح قد يتوج النجاح بنجاح أكبر.

إذا كان المرحوم الشيخ «عبدالرحمن القصيبي» الذي كان لي شرف العمل لديه من أنبل خلق الله خلقاً.. ونبلاً وسماحة.. ويضاف إليه أبناؤه الطيبون.. فإن الشيخ «عبداللطيف العيسى»، الذي ضمني إلى زمرة العاملين لديه أخيراً، من خيرة من عرفت تواضعاً.. وبشاشة.. ورحابة صدر..

أين هو الموقع الجديد؟!

لقد وُكل إلي شأن بيع قطع غيار سيارات «جنرال موتورز» بأشكالها المختلفة..

لك أن تفغر فاك دهشة وغرابة.. ولك أن تضحك! أنا لم أخلق لمثل هذا العمل.. كما أنه لم يُخلق لمثلي.. فأنا وهو على طرفي نقيض.. أنا لا أفهم من شأنه شيئاً ألبتة.. ولكن..!!

وللضرورة أحكام، كما يقولون.. حاولت أن أركب الصعب.. أن أتعامل مع «الكاربرايتور» و«الدينمو» و«البليتين» و«البواجي» و«الديلكو» و«البوبينه» و«الشكمان» وغيرها كما يتعامل طفل مبتدئ مع أول أبجديات الحرف.

والأشياء تجارب.. وتعلم.. ومتابعة.. وطول بال..

كان عملي الجديد قفزة في خانة المادة! ألف ريال لا ينقص قرشاً أتقاضاه مع نهاية كل شهر.. يا للهناء.. وبيت ضمَّني في آخر المطاف بين جدرانه أشعرني بالاستقلالية..

بضعة أعوام مضت هادئة مستقرة، لا ينغص لحظاتها منغص.. الثقة تعمق جذورها داخل أسرة العمل.. وفسحة من الوقت أعطت لي الفرصة في متابعة

العالم المحدود من حولي.. منفعلاً به.. متفاعلاً معه.. سمحت لي بالتفكير في أن أمد بساط حركتي إلى ما هو أبعد من محيط السيارات وقطع غيارها..

وجاءت المفاجأة التي حولت مسار حياتي.. وقلبتها ظهراً على عقب..

ترى أين هي تلك المفاجأة.. وماذا تكون؟!

البداية غير مشرفة

إنها المسار على درب الكلمة.. كيف جاء هذا؟! ومتى بدأ.. ومتى تحول إلى مشروع عمل؟!

قبله – وكنت طالبا في مدرسة «دار التوحيد» بالطائف – كانت تنازعني هواية القراءة.. كنت شغوفاً بمتابعة ما أقدر على شرائه من كتب أدبية.. شعراً كانت أو نثراً.. كنت أرصد بعض الجمل الرومانسية التي أقرؤها وتشدني صيغها وعباراتها.. أرصدها في مفكرة صغيرة أحتفظ بها كي أُبيِّض بها وجهي حين تدعو الحاجة إليها.. وحين يطلب مني أستاذي كتابة موضوع ما في مادة الإنشاء أهرب إلى تلك المفكرة لأوظف تلك الجمل الحالمة صلب المادة باعتبارها من صنع بنات أفكاري.

كان أستاذ مادة الانشاء يجهل أنني لص كلمات.. كان يشيد بما أكتب.. ويطلب مني المزيد دون أن يدري أنني أخدعه.

على الرغم من هذا التجاوزات الفاضحة.. فإن ميولاً تجذبني وتستحثني في أن أحاول.. وأحاول لعلَّ.. وعسى.

كانت البداية يوم أن طرحت صحيفة «البلاد السعودية» مسابقة للقصة

القصيرة على مستوى القراء. كان ذلك عام ١٣٦٥هـ على ما أحسب..

يومها شمرت عن ساعدي.. وتوكلت على الله.. وقلت في نفسي:

- لماذا لا أجرب.. إنني لن أخسر شيئاً.

هرشت شعيرات رأسي.. أمسكت بالقلم.. وجاءت أول محاولة في حياتي.. كانت قصة صغيرة لا تتجاوز الثلاث صفحات تحت عنوان «على قارعة الطريق» ورغم بدائيتها.. وتواضعها فإنها فازت.. حصلت على الجائزة الثالثة..!

كانت النافذة الضيقة التي أطللت من خلالها على ما يسمى «عالم الكتابة».

لم يستغرق عملي في دنيا «قطع الغيار» كل تفكيري.. كانت تدغدغني الرغبة في أن أتنفس خارج دائرة أسمائها.. وأسعارها.. ولكن كيف؟!

ثم أين هو المنبر الذي أدفع به.. وإليه تلك الخواطر الوليدة الحبيسة داخل جدران النفس.. ويبدو أن الانتظار - والانتظار أمر من القتل - لم يدم طويلاً.

لقد صدرت صحيفة «الفجر الجديد» بمدينة الخبر.. وعن قرب.. لصاحبها الأستاذ يوسف الشيخ يعقوب.

جاء صدورها بمثابة شحنة قوية تجدد بها الأمل في فتح باب للمحاولة.

كان ميلاد صحيفة.. ميلاد حلم.. سعد به سعد وغير سعد ممن في حاجة إلى منبر يتحاورون ويتبارون من خلاله.. إلا أن الحلم الوليد سرعان ما اختفى باحتجاب المنبر الموعود..

الهاجس المغامرة

قرع ذهني هاجس ارتجالي:

- لماذا لا تحاول استصدار مجلة تملأ فراغاً حصل باحتجاب «الفجر الجديد»؟!

«الفجر الجديد» كما نشهده كل يوم يبعث إشعاعا دافقاً.. رافقاً.. ينتهي باشعاع أكثر إشراقة وأوسع مدى.. فلماذا لا يأتي «الاشعاع»؟.

وجاءت فكرة المجلة «الاشعاع» التي تمت الموافقة على إصدارها مع مطلع كل شهر هجري.

كانت الولادة عسيرة وخطيرة.. فمن أين لي بالمواد التي تغطي مساحة صفحاتها الاثنتين والثلاثين؟!

لا أحد يعرف عن أمر ظهورها شيئاً ممن يقدرون على مد يد العون.. ثم إن إصدارها جاء مباغتاً.. وصدورها أيضاً كان محدداً.. مع مطلع العام الهجري ١٣٧٥هـ.. أي قرابة الشهرين هي الفترة الزمنية المتاحة..

ميلاد مجلة

لم يكن للاشعاع مكتب.. ولم يكن لها أسرة تحرير.. بل ولم يكن لها عنوان.. أما ميزانيتها الشهرية فهي خمسمائة ريال.. للألف نسخة التي تحددت كحد أقصى ثابت لم يتغير إلى حين توقفها..

كنت أطبعها لدى مطابع المرحوم خالد الفرج بمدينة الدمام..

شعرت وأنا أمام الأمر الواقع أن اختبارا صعباً يواجهني لوحدي.. اختبار صعب لا يرحم.. البحر أمامي.. والحائط خلفي.. وليس أمامي من اختيار إلا أن أقبل التحدي الذي لا أملك له القدر الكافي من السلاح..

سأحاول.. لابد أن أحاول.. لابد أن أكتب واكتب كيفما اتفق «شعراً» «نثراً» «مقالة» و«قصة» ولتكن مذيلة بأسماء مختلفة.. ومستعارة.. وهكذا كان..

صدرت أعدادها الأولى بموادها المتواضعة المختلفة وقد ذيلت ببعض التواقيع: (سعد البواردي، س، ب، أبو سمير، أبو نازك، فتى الوشم..) إضافة إلى مادة مختارة أو مادتين أملأ بهما حيزا من فراغات صفحاتها.. إضافة إلى القليل القليل مما أمكنني تجميعه من كاتب هنا.. وآخر هناك.

للصدق فلمّا تمض بضعة أشهر وبعد أن تحدد عنوان المجلة حتى تلقت زخماً مرضياً من المواد التي كانت إلى حدٍّ ما كافية وافية.

عامان بالتمام والكمال هما عمر مجلة «الاشعاع».. كان صدورها مع بداية شهر المحرم عام ١٣٧٥هـ. وجاءت نهايتها بنهاية شهر الحجة ١٣٧٦هـ.

ثلاثة وعشرون عدداً رأت النور.. أما العدد المتمم للسنة الثانية فقد رحل بعملية قيصرية قبل أن يكتمل نموه..

أسباب ساعدت على الرحيل

يوم أن ظهرت المجلة.. وقبل أن تظهر وبعد أن ظهرت أيضاً، كان عالمنا العربي يعيش شحنة من عاطفة التحرر وعاصفة الاستقلال.. كان الصراع إلى ذلك على أشده.. كان الحماس.. وانفعال الحماس يولِّد صدى مشبوباً من الكلمات تكاد تكتوي بناره صفحات الصحف وهي تتابع مسيرة النضال.. وتسابقها.

من هنا جاءت صفحات المجلة مستجيبة ولكن في اندفاع زائد الحد لتلك التطلعات الكبيرة التي تختمر في النفوس.. دفاعاً.. واندفاعاً..

كان قراء «الاشعاع».. هم كتابها.. كانت عباراتهم المتوهجة حماساً.. ونبراتهم المليئة بالحياة يرن صداها فوق جبال الأطلس حيث الاستعمار الفرنسي.. ويتردد رجعها في «عدن» و«مسقط» حيث الاحتلال البريطاني.. ويمتد مداها مرورا بقبرص.. وصولا إلى «الكونغو» حيث القيد البرتغالي.

كان العالم من حولنا تقهره الأحداث.. تصهره الحوادث.. تتشكل ملامح رسم خريطته من جديد. كانت الطموحات كبيرة.. والصيحات أكبر.. وكان القلم هو الأكثر استشعاراً وإشعاراً بالأمل والألم.. كان الصوت عاليا..

وأحيانا جاداً حاداً تتجاوز قدرته وقوته حدود الاشعاع..

الأقلام التي تطبع كلماته شابة.. بل إنها في أوج حماسها الفكري المندفع.. وبلا حدود..

كانت مساحة الحرية المتاحة تتسع لطرح المزيد من الطموحات والتطلعات دون قيد..

من هنا كان صوت المنابر عاليا.. وصدى الكلمات يخترق جدار الحذر دون خشية..

ومع هذا.. فلكل حصان كبوة.. ولكل قلم عثرة قد تجره إلى مساءلة حتى عن حسن نية.. وحتى عن اقتراب من واقع حاول أن يتعامل معه.. إلا أنه لم يوفق.. ربما لسوء فهم.. ربما لسوء حظ.. وربما حصيلة وشاية لم يتوقعها.. إلا أنها حصلت..

الوشاية التي أشعلت النار

من أين بدأت الشرارة التي أشعلت النار.. وأذكت جذوتها حتى الاحتراق والاختراق؟!

أحد (الأصدقاء!!) هكذا سأصفه - سامحه الله - ودون أن أسميه.

أحد زملاء المهنة.. هكذا سأعرِّفه دون أن أشير إليه..

لقد تأبط عدد «الاشعاع» وفي حضرة شخصية كبيرة رحلت عن دنيانا لن أسميها أيضاً.. راح يتحدث إلى تلك الشخصية عن التجاوزات الصارخة كما يتراءى له.. ثارت ثائرة الرجل الكبير.. وأمام هرم السلطة آنذاك، وكان وقتها المغفور له بإذن الله الملك سعود.. وكان القرار..

إيقاف المجلة عن الصدور.. التحفظ على صاحبها في «ضيافة» الدولة.. والتحقيق معه..

زوار الفجر

ذات ليلة من شهر ذي الحجة عام ١٣٧٦هـ كان الصمت المطبق يخيم على سماء المدينة.. الناس نيام.. الهزيع الأخير من الليل يقترب..

أجفل صمت الدارة التي أسكنها على وضع ضربات متلاحقة على الباب.. قعقعة أقدام تتحرك.. وجلبة أصوات لا تهدأ..

على وقع كل هذا استيقظت مذعوراً تطاردني دقات قلبي متسارعة.. متصارعة.. لم يكن أمامي فرصة للتفكير.. ولا حتى للانتظار رغم استشعاري بشيء من اليقين والثقة في سلامة موقفي.. فأنا أدرك جيدا ان خطواتي التي أخطوها محسوبة تقف دائما عند حدود العلامة الحمراء المحظور الاقتراب منها.. ناهيك الوصول إليها أو تجاوزها..

ومع هذا قلت في نفسي وأنا أتحرك عبر سلالم البيت القديم..

- لعل خطأ ما حصل..
- لعل أحدا غيري كان المقصود بهذه الزيارة الغامضة.. المفاجأة.
- ألا يكون العنوان غير العنوان؟!

الباب يفتح.. الحاجز الخشبي ينفرج.. وأمام هذا المشهد الدراماتيكي

كـادت تتجمـد أوصـالي، لـولا أن بـشاشة وجـه العقيـد الـذي وكلـت إليـه هـذه المهمة.. وابتسامته أعادت إلي بعضا من الطمأنينه..

لقد حياني كما لو كان يعرفني.. بادرني بسؤاله..

- هل أنت فلان؟!

أجبته:

- نعم أنا أهو..

قال:

- هل تسمح لنا بدخول البيت؟!

أجبت:

- أهلاً.. وسهلاً.. تفضلوا..

وتفضلوا.. تحركت أقدامهم تذرع السكن.. تطوف في حجرات الدار.. كانت تبحث عن شيء.. وجدت ما كان مطلوباً منه إحضاره..

- مجموعة كتب.. وأوراق.
- بندقية «أم تاج» مقطوعة.
- مسدس.

وأنـا.. بعـد ذلـك.. فقـد طلـب منـي المـسؤول في أدب أن أكـون في صحبتهم.. طمأنني أن الأمر لا يدعو إلى القلق..

من «الخبر» إلى «الدمام» كانت النقلة القصيرة في مسافتها.. الطويلة في مساحتها الزمنية.. مع إطلالة الفجر تسلّمني مأمور الضيافة.. اختار لي غرفة يغرقها الصمت حتى لا تزعجني الأصوات..

عايشت الصمت.. وتكيفت معه.. كان ذلك يوم جمعة.. والجمعة يوم إجازة.. وجاء يوم السبت.. يوم الحساب والمساءلة..

على منصة التحقيق

أمام مدير الأمن العام للمنطقة المرحوم عبدالعزيز الأحيدب كنت ماثلا للاستجواب.. أسئلة كثيرة طُرحت.. وأجوبة كثيرة أعطيتها.. ذلك أن لكل سؤال جواباً..

- عن المسدس.. قلت إنه هدية من «فلان» وفلان حي يرزق فلتسألوه..
- عن البندقية.. قلت.. ورثتها من أبي.. وللعلم فهذه البندقية كان لأبي شرف حملها إلى جانب المغفور له الملك عبدالعزيز إبان جهاده توحيداً للمملكة..
- وعن الخبر الذي نقله «الواشي» والذي أثار الزوبعة من حولي فقد أكدت في شجاعة لا أحسد عليها أنني لم أختلقه ولم أضخمه.. حددت المدينة، وأطراف المشكلة.. والتجاوز الذي زاد من سخونتها.. ومن مضاعفاتها..

عند هذا.. انتهى التحقيق..

وللحق فإن رحابة صدر المسؤول.. وحسن تعامله.. وربما أيضاً قناعته في صدق الإجابة.. ساعد كل ذلك على انقشاع غمامة الصيف شيئاً فشيئاً..

ويبدو أن هذه القناعة من الصدق التي وجدت طريقها إلى نفوس من يعنيهم الأمر، ساهمت في زحزحة الأمور إلى ما هو أسهل.. وأقرب إلى البراءة..

بين بينين

بعد عشرة أيام على ما أظن – وبعض الظن اثم – جاء الأفراج مرحليا..

جاء الفرج يطرق باب الغرفة الاسمنتية الموصد ليأخذني ال غرفة أفضل تفصل بين الضيافة العمومية.. والضيافات الفردية الخاصة.

لحسن الحظ كان المأمور الحاد النظرات بشواربه المفتولة التي تغطي نصف وجهه لا يحسن القراءة جيدا.. كانت فرصة سانحة كي أمد جسور الصداقة معه..

إن كل واحد منا يحتاج إلى معونة الآخر.. انا أقرأ له أوراق القادمين والمغادرين، أما هو فيفتح لي، وفي حدود الإمكان، منافذ القراءة.. والسماع..

جهاز راديو صغير أمكن وصوله.. بعض مجلات وصحف أمكن تواجدها.. أكثر من كل هذا كانت وجبات الطعام الشهية.. وأباريق الشاي تطرق باب غرفتي دون استئذان..

بالمناسبة كان ابن عمي «محمد بن سعد البواردي» التاجر المعروف يرحمه الله خير أهل، فلقد ساهم في ملء «كرشي».

مـــا بـــين غمـــضة عـــين وانفراجتهـــا

يغـــــير الله مــــن حـــــال إلى حـــــال

كـل شيء تغير إلى الأفضل.. احسست انني أعيش بحق وحقيق داخل فندق خمس نجوم..

إنه الرحمة.. والعدل.. والإيمان بأن الله – جلت قدرته – لن يتخلى عن بريء وقع ضحية واشٍ لم أسيء إليه في حياتي.. كما لم أسيء إلى غيره..

ولكن ماذا بيدي أن أقول لمن وشى أكثر من: سامحه الله وعفا عنه».. بل وأكاد أقول «شكر الله سعيه»! فلقد أسدى إليّ معروفا من حيث لا يدري.. ولا أحتسب، لمسته فيما بعد..

رب ضارة نافعة

شهران وأيام مرت مثقلة الايقاع.. الرتم لا يتغير.. نزلاء يفدون.. يحلون وآخرون يرحلون – بفتح الياء – أو يُرحلون – بضمها.. هل أكون واحداً ممن يرحلون. أو يُرحلون.. ومتى؟!

تساؤل محير لم أستطع فك إجابته.. وتأتي المفاجأة.. برقية تحمل أحد الخيارين.. أيهما اختار.. أن أبقى حيث أنا.. أو أن أرحل إلى مسقط رأسي شقراء ولمدة عام كامل لا أبرحها.

كان الخيار الثاني الذي لابد منه.. كان خياراً صعباً بالنسبة إلي.. إذ أنني به سوف افتقد الوظيفة.. والمنطقة التي أحببتها.. والمعارف.. وأكل السمك.. والماء المثلج.. وأشياء أخرى توطنت على حبها.. وأصبحت جزءا من كياني.

اخترت العودة من حيث أتيت وفي حلقي غصة الوداع.. ومع ذلك فقد أفرغ في يقيني أن الخيرة فيما اختاره الله.. وأن رب ضارة نافعة.. تمتمت ببيتين من الشعر طالما رددتهما بيني وبين نفسي..

سـيغني الله عـن بقـراط دن

ويـأتي الله بـاللبن الحليـب

سـيغني الله عـن زيـد وعمـرو

ويـأتي الله بـالفرج القريـب

وجاء الفرج

جاء الفرج كما توقعت بعد ان استوفيت شروط الحركة.. أحد الأصدقاء الذين اعزهم. وأكبرهم.. انه الشيخ ناصر المنقور يرحمه الله كان وقتها مديراً عاماً لوزارة المعارف.. عرض علي ان اشغل وظيفة بالوزارة.. جاءت الاستجابة فورية ودون تردد.. كان المرتب الذي تقاضيته لأول وهلة يتساوى وآخر مرتب أتقاضاه كبائع لقطع غيار السيارات.. مع فارق في طبيعة الجو.. لا دحرجة هنا للدواليب المطاطية ولا رائحة تزكم الأنوف لعوادم الشكمانات وإنما جو ينضح بالمعرفة.. والثقافة.. والعلم.. لقد أبدل الله درهمي ديناراً.. بل أكثر من دينار..

خادم الحرمين الشريفين الملك «فهد» يرحمه الله كان وقتها وزيرا للمعارف.. أما وكيل الوزارة فهو المرحوم الشيخ عبدالعزيز بن حسن آل الشيخ.. الذي أصبح وزيراً فيما بعد تدرجت في الكادر الوظيفي وفق ترتيب الأعمال التي مارستها..

- سكرتيرا للتعليم الثانوي.. أي ناموسا وفق مصطلح المجامع اللغوية العربية.

- مساعدا لمدير البعثات الخارجية.
- مديرا لإدارة العلاقات العامة إضافة إلى إدارة المجلة المستحدثة.. وسكرتارية المجلس الأعلى للتعليم.. والمجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب.

كان لي شرف رئاسة تحرير مجلة «المعرفة» التي تصدر دورية كل ثلاثة شهور وتعني بشئون التربية والتعليم.

شكلت هذه المرحلة جزءا من حياتي العملية من خلال منظور جديد منحني إضافة لا بأس بها استطعت خلالها من توسع دائرة التعارف وفق منطلق يتسم بالشفافية والجدية أكثر فأكثر..

اللقاء الثلاثي

أتاح لي وجودي بمدينة الرياض على مقربة من أخي وصديقي وأستاذي الشيخ حمد الجاسر فرصة التلاقي مع أخي الأستاذ عبدالكريم الجهيمان رحمهما الله بل والمشاركة المتواضعة في مجال الكتابة.. حينها كان «أبو محمد» يصدر «اليمامة» المجلة.. التي تحولت فيما بعد إلى صحيفة أسبوعية ماتعة.

كان لابد من الاسهام والمشاركة قدر المستطاع.. أتاح لي فرصة المحاولة التي هي بمثابة النقلة نحو التوجه.. والتواجد والمشاركة المتواضعة على ساحة الكلمة.. بدأت محاولاتي اطلالة من «النافذة» كل أسبوع.

تدرجت بعد فترة وبعد أن هَبَطَتْ درجات السلم لتقفَ أمام عتبات الباب المفتوح ولما لم يكن ذاك كافياً غادَرتْ البابَ المفتوح.. وحشرتْ نفسَها مع الناس تتلمس برفق وبصدق ما أمكن من مشاكل القراء بحثا عن حلول مواتية.

كانت مادة مع الناس تعتمد في عناصرها على ما يُبعَثُ من القاريء.. ما يطرحه من مشكلة خاصة به.. أو تطال غيره.

سنوات.. واحتجبت «اليمامة» الصحيفة.. لتخلفها «الرياض» المؤسسة

الصحفية. تتوارى أقلام.. وتبدأ أقلام.. وتهدأ أقلام.. وتتشكل الملامح الجديدة لصحافة المؤسسات أخذا.. وعطاء.. صياغة.. وطرحا.. وفق الامكانيات والطموحات.. كانت المادة الأدبية تشكل العمود الفقري وفق توجهات المتلقي وقتها كانت بالنسبة لي هي الكتاب.. والتلفاز.. وجهاز الاستماع.. كانت هي الجواد الرابح الوحيد في ميدان السباق.. لا شيء آخر ينافسها لأنها وحدها منبر رأيه.. وصدى رغباته.. وزاده من الثقافة الذي يحرص أن لا يفوته. ومع تحرك دولاب العصر.. واختراقه لجدار العزلة كان لابد للحدث.. وللخبر وللاستطلاع الصحفي من أن يحتل مساحته على رقعة وسائل الطرح محددا بشكل أو بآخر حجم الحيز الذي كانت تحتله المادة الأدبية في صحافة الأفراد.

في الطريق إلى بيروت

عفواً.. لعلي خرجت عن النص.. عن شريط الذكريات الذي يلزم أن لا أتجاوزه.. اعتادت وزارة المعارف طباعة الكتب الدراسية خارج المملكة.. كنت أحد الذين انتدبتهم الوزارة للإشراف على طباعتها في بيروت كان ذلك عام ١٣٨١هـ أكثر من مرة واحدة في أكثر من سنة واحدة أتاحت لي فرصة التواجد هناك.. كانت بيروت في أوج عزها.. لم تعرف بعد لغة الصواريخ والمورتر.. كانت بيروت الساهرة الساحرة تعزف أنغامها الحلوة على أوتار الموج العاشق وهو يداعب أطرافها في غزل وشوق.

اختمرت في ذهني فكرة ارتجالية مجنونه.. تردَّدتْ.. هل أقدم عليها؟! هل أتجاهلها؟! قلت في نفسي:

- لن أخسر شيئا البتة إذا ما حاولت وفشلت.. إنهم ينتدبونني كل عام ماذا لو انتقل عملي إلى هنا..؟!

ساعدني لكي أقدم على هذه الخطوة ما أعرفه عن المرحوم الشيخ حسن آل الشيخ وزير التعليم العالي من طيبة ونبل.

أبديت له رغبتي في الانتقال إلى لبنان.. لم يتردد «أبو هشام» كان سريع

الاستجابة وكان علي أن أعد للرحيل عدته..

انتقلت إلى بيروت عام ١٣٨٤هـ ملحقاً ثقافياً فمستشاراً ثقافياً لمدة تجاوزت اثني عشر عاماً سعدت خلالها بزمالة أخي الشيخ عبدالمحسن المنقور الذي كان لي خير الصديق.. وخير العون يرحمه الله.

فرحة.. لم تكتمل

لاشي يبقى على حاله.. فبقاء الحال من المحال.. أشياء كثيرة في طي المجهول لا ترد لك على بال أو تقدير حتى في هستيريا الأحلام تواجهك على حين غرة فتزلزل الأرض تحت أقدامك.. تتركك طريحاً.. أو صريعاً.. أو مطارداً إذا ما كنت محظوظاً مثلي.

في عام ١٣٩٥هـ بدأت نذر الشر.. وغمائم السوء تنشر خيوطها السوداء فوق سماء لبنان.. مُواجهة بين فلسطينيين.. والجيش أمكن احتواءها.. مواجهة بين الفلسطينيين وحزب الكتائب إثر كمين لاوتوبيس فلسيطيني في فرن الشباك أودي بعشرات الأبرياء. اتسعت دائرة النزاع إلى صراع أشمل بين المسلمين والمسيحيين.. التهب الجو.. اشتعل الجبل.. صمت العقل.. وتحدثت أفواه المدافع.. كانت الصواريخ كالشهب.. كالسهام الحارقه تخترق سماء السكن من حولي لا تلوي على شيء.. كان دوي انفجارات قذائف الهاوزر المنطلقة من قواعدها في الجبال والمصوبة إلى منطقة الفنادق حيث المواجهة الساخنة من الجانبين تصم الأسماع.. وتقض المضاجع.

«حين تندلع شرارة الحروب لابد من الهروب».

عبارة.. أو حكمة رددتها «أم عبدالرحمن» وهي ترقب في وجل لحظات الانفراج.. الذي ما إن يهدأ لحظة حتى يعاود جنونه من جديد.. وبشراسة لا هوادة فيها..

لابد من الهرب بحثاً عن النجاة.. ولكن إلى أين..؟!

أين الطريق إلى حمام بنجاب..؟!

المسالك إلى مطار بيروت ونحن على مقربة منه غير سالكة، غير آمنة.. رصاص القنص هو الأشد خطورة.. ولكن.. لم يبق من خيار غير المجازفة.. فالأهوال القادمة كما تراءى لي أشد وأنكى..

أمكن لمحاولة النجاة أن تنجح.. الاتجاه إلى قاهرة المعز.. ولننتظر الفرج..

قرابة شهور أربعة كان الانتظار..

هدنة.. أو ما يشبه الهدنة أوقفت نزيف الدم.. صمتت فوهات المدافع.. وقعقعة السلاح.. كان لابد للغائب من عودة لمزاولة للعمل.. واطمئنانا على سلامة السكن و محتوياته..

الصدمة

عدت.. والعود هذه المرة ليس بأحمد.. لقد كانت الصدمة..

لقد انتزع من الشقة ما غلى ثمنه.. وخف حمله.. إضافة إلى مكتبتي.. كتبي المختارة «حصيلة تجميع أكثر من عشر سنوات.. سجاد.. وأجهزة.. و.. و.. إلخ.

كل شيء يهون أمام الأرواح وقد سلمت.. إلى أين أتقدم بالشكوى؟! ولمن؟! وعلى من؟!

قيل لي:

مكتب المنظمة على بعد عشرات الامتار..

تقدمتُ بالشكوى..

كانـــت مواعيـــد عرقـــوب لهـــا مـــثلا
ومـــا مواعيـــدها إلا الأباطيـــل

جاء الوعد بالتحري.. والبحث.. إعادة مانهب.. وهل يعيد سارق ما سرق؟!

تكشفت الخبايا.. كان الخصم هو الحكم.. أما دواعي السرقة وبواعثها

فلأنني «بترولي!» «رجعي» «امبريالي».. وهذا تحل سرقته.. تصور!

احتضنتني الشقة ببقايا البقايا بضعة أشهر أخرى.. كان الجو خلالها ملبداً بغيوم الفتنة.. يصحو ساعة.. يرعد ساعة.. يمطر أخرى، أما زخات مطره فتتراوح ما بين رصاص القنص.. وقنابل المدافع.. وأسراب الصواريخ..

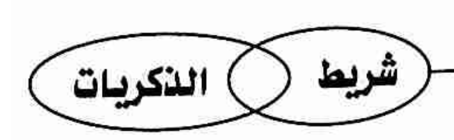
كان ذهابي للعمل.. وخروج أولادي إلى المدرسة القريبة ضرباً من ضروب المجازفة المجنونة.. ولكن ما الحيلة.

الناس يغامرون.. والأعمار بيد الله.. والمكتوب على الجبين لابد وأن تراه العين..

الأزمة تحتد وتشتد شيئاً فشيئا حتى كانت لحظة الانفجار الرهيب عام ١٩٧٦هـ.. يومها كان الأفق على اتساع دائرته أشبه بالشفق المخضوب بالدم..

الحرائق.. الصراخ.. صفير عربات الأطفاء.. عويل سيارات الاسعاف.. الصواريخ تقترب أكثر وأكثر من حوائط السكن.. السهاد، القلق والرعب جميعها تشكلت وتضخمت على هيئة كابوس موجع مفجع يطاردني وأسرتي لحظة بلحظة.

الخلاص هذه المرة بأية وسيلة.. وعن أي سبيل مطلب ملح لا رجعة فيه، أيا جاء الثمن.. وعبر حواجز مسلحة تتوارى خلف دشمها مشهرة بنادقها.. ومن خلال تدقيق في هوياتنا أمكن لنا بعد حرق الأعصاب الوصول إلى



المطار.. والمغادرة.. قبل أن يقفل مطار بيروت بيوم واحد.

كانت بالنسبة إلي أشبه بعاشق أرغم على طلاق حبيبته.. فبيروت معشوقة جنى عليها كثرة المتيمين بحبها إلى درجة القتل.. وتشويه الجثة.. بل وحرقها.

ومن الحب ما قتل

أعود إلى السكن المهجور في بيروت فقد تناوشته الأيدي للمرة الثانية.. والثالثة.. لم يبق منه إلا حيطانه المثقوبة بفعل الرصاص.. وأبوابه التي ما زالت حتى لحظتنا هذه مشرعة لمحتلين غرباء يتحركون في حرية داخل حجراته.. وبين ممراته.

أوصدت السفارة أبوابها.. وهذا يعني أن المكاتب الأخرى أيضاً موصدة.. لا وقتل لعمل وإنما الوقت كله للقتل.. وكان علي وقد عدت إلى القاهرة أن أستشرف مكاني من الإعراب.. أين..؟!

الخيار الأخير

كانت لفتة طيبة من وزير التعليم العالي أن أبقاني حيث أنا «ملحقاً تعليمياً للشؤون الإعلامية» في مصر.

ستة وعشرون عاماً، أمضيتها على ضفاف النيل.. عشت.. وعايشت.. المدينة الضخمة الصاخبة بملايينها الثلاثة عشر.. آن ذاك أؤدي عملي في هدوء..

ثلاثة عشر عاماً كانت نهاية المطاف بالنسبة لحياتي الوظيفية وقد بلغت الستين.. كان علي أن أريح وأستريح.. أن أستعيد حرية الحركة دون قيد وظيفي يحد منها.. وعلى الرغم من أن الوظيفة رسالة خدمية يشرف صاحبها بأدائها لصالح وطنه.. إلا أن الستين وقد بلغتها أحوجت نفسي إلى قدر من الراحة أستطيب معها تملك ساعات يومي إشباعاً لما لم أقدر على مزاوجته مع متطلبات الوظيفة التي كانت لها السلطة والاستحواذ.. تذكرت.. وأنا أخطو وئيدا نحو بوابة العقد السابع من العمر.. تذكرت بيت الشعر لناجي:

اعطني حريتي أطلق يدي

إنني أعطيت ما استبقيت شيا

وللحق فمن حق جيل يلي جيلنا أن يطال فرصته.. أن يحتل مكانه.. ولن يتأتى هذا إلا إذا أفسحنا لخطواته الدرب في حب وقناعة.. بعد أن استحوذنا على فرصتنا كاملة..

ومرة ثانية أكررها.. كان علي أن أريح وأستريح.. أن أتفرغ إلى ما هو أكثر خصوصية والتصاقاً من الوظيفة.

خارج اطار الوظيفه

أتفرغ لأولادي وهم يتعلمون.. أتفرغ إلى نفسي.. أمنح لها فرصة الراحة.. والتأمل.. أقرأ دون شاغل.. أكتب دون مشاغل.. أكتشف عالماً من حولي من خلال رحلات تتجدد وتتجدد أتاحت لي فرصة مشاهدة أكثر من ستة وعشرين بلدا على اتساع رقعة المعمورة.. تمثل أكثر من ثلاثمائة مدينة كبرى.. وقبل هذا.. وبعد هذا محاولة الابتعاد ما أمكن عن المنقصات والمنغصات.. فما بعد الستين لا يقوى على هزات التوتر والصدمات.. إنها أحوج ما تكون إلى الراحة من خلال استراحة لا إزعاج فيها.. طبعا على قدر الإمكان فالحياة لا تخلو من منغصات..

تقاعدت وولجت بوابة ربيع العمر عام ١٤٠٩هـ حياة ما بعد الوظيفة.

الرقم المشؤوم

خلصت من الوظيفة.. أو خلصت مني.. لا يهم أينا انفك عن الثاني.. ولكي لا أبتعد عنها لابد وأن آتي على الوظيفة ذات الرقم المشؤوم (١٣).. المرتبة العاشرة.. كنت أشغلها لمدة تقترب من الثمانية أعوام دون أن تبدو لي في الأفق بارقة أمل للزحزحة عن آخر مربوطها.

ومن سوء حظ بعض الزملاء أن اقترنت أسماؤهم باسمي وبرقم وظيفتي ضمن بيان واحد تقتضيه إجراءات الترشيح لمراتب أعلى ولأكثر من مرة دون فلاح.. استشعرت من كل هذا أن شؤم رقم وظيفتي جنى عليهم.

كتبت كلمة في زاوية «السلام عليكم» بصحيفة الجزيرة أتيت فيها على هذا الوهم الذي كاد أن يتجسد بواقع التجربة إلى حقيقة.. تمنيت فيما تمنيت إما أن تكشف الغمة عن الجميع.. أو أن يحجر على اسمي ورقم وظيفتي الموسوم بالشؤم بعيدا عن قائمة زملائي حتى لا يطالهم بعدواه.

ولكي أنسب الفضل إلى صاحب الفضل.. ولحسن حظي فلقد مرت هذه الكلمة على ناظر وخاطر صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض آنذاك الذي أعارها مشكوراً اهتمامه ونخوته.. وكان أن

اتصل بي صديقي الشيخ عبدالله البليهد مهاتفاً.

نقل إلي اهتمام سموه الكريم.. طلب مني مسوغات التعيين اللازمة في مثل هذا الأمر..

وكان أن بعثتها.. وإن هي إلا أسابيع معدودة حتى جاء جهينة بالخبر اليقين.. كانت المفاجأة السارة التي لم ترد لي على حسبان.. لقد قفز بي السلم الوظيفي إلى مرتبة أعلى. وأغلى أشعر أنها أكبر مما أستحق، ألا إنها شهامة سلمان الإنسان ونخوته..

ثلاث زيجات في حياتي

عودة إلى ما هو أهم من جوانب الحياة الخاصة.

تزوجت الأولى.. وأفشلته الظروف.

تزوجت الثانية.. وأفشله الواقع..

وتزوجت الثالثة.. وكان التوفيق بعينه.

أما لماذا الفشل فتلك قصة وثانية أكتفي بملامحهما دون التعرض للشخوص ولا للأشخاص.

كانت زيجتي الأولى من زوجتي الأولى عام ١٣٦٨هـ محكومة بالقرابة.. وبالثقة.. فالأسرة كريمة محافظة. وعلى الرغم من أن الزواج حينها محكوم بعادات متوارثة من حيث أساليب الخطبة.. وإمكانية رؤية الزوجة.. أو حتى صورتها على الأقل إلا أن الزواج كان الأقرب إلى ما في النفس طباعا، وانطباعا.

إلا أن الظروف أيضاً تلعب لعبتها.. وتتخذ مساراً مخالفاً للتوقعات والرغبات.. كان زواجي في «شقراء» حيث تقيم زوجتي وأسرتها.. وكان عملي في «الخبر»، ظروف العمل لا تسمح لأكثر من شهر واحد في السنة كي

يضمنا سقف واحد.. أمر غير طبيعي أن تستمر الحال على هذا المنوال.. الاغتراب بين الزوجين يُتْم.. واليتم في الزواج كاليتم بالموت.. إنه الوحدة والوحشة.

أقدمت على الخطوة المنطقية.. أن تسافر معي حيث أعمل.. أو أن تلحق بي متى سمحت ظروفها بذلك.. إلا أن شيئاً من ذلك لم يتم.. لقد ريعت الأسرة من فكرة الاغتراب!! والغياب فهي لم تألفه.. وإلى أين؟! إلى المنطقة الشرقية.. الظهران.. وما أدراك ما الظهران!!

أقول ريعت الأسرة.. وكان الأصرار على الاعتذار.. وكان الخيار المطروح.. أن تظل الحال كما هي عليه.. شهراً في كل عام.. أو أن أختار العودة مضحيا بالعمل.. والتضحية بالعمل تشدني إلى العوز.. أو الأقدام على الخطوة الثالثة.

كان الاختيار صعبا.. فلا الأول ببعاده مقبول.. ولا الثاني بارتداده مقبول.. وكان لابد من أن أركب الصعب.. خيار الانفصال.. مع الاحتفاظ بوصال لا تشوبه شائبة.

ويأتي السؤال الآخر..

لماذا فشلتْ زيجتي الثانية؟!

هنا كان الوضع مختلفاً.. الصورة غير الصورة.. والمكان غير المكان..

مدينة «الدمام» حيث تسكن هي..

مدينة «الخبر» حيث أقيم أنا.

كان يحس بحاجتي إلى زوجة أكثر من صديق.. لطالما رددت على مسامعهم هذه العبارة..

بيت لا تملؤه حواء بتحنانها وحنوها إنه قبر مهما اتسعت ردهاته وتعددت حجراته..

بهذا الإحساس تولدت لدى البعض الرغبة في البحث عن شريكة منتظرة للحياة.. كانوا الأقدر على المعرفة مني.. ذلك أن أهل مكة أدرى بشعابها..

ذات يوم جاء إلي أحدهم وعلى شفتيه ابتسامة عريضة.. همس في أذني:

- لقد وجدت لك بنت الحلال.

همست في أذنه بنفس القدر.

- بشرك الله بالخير.

سرد علي في لقاء اتفقنا عليه المواصفات التي لا أعرف كيف توصل إليها.. قال لي نسبة إلى مصادره الخاصة التي لم يكشف عنها:

- إنها صورة طبق الأصل من شقيقها.. والبعرة تدل على البعير.. (مجرد مثل لتقريب الصورة.. وليس للتشبيه).

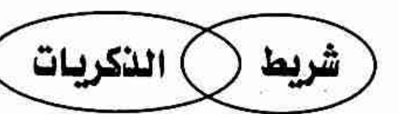
قلت له:

- حسنا إذا كان من المتعذر أن أراها.. فلا أقل من أن أرى شقيقها بمواصفاته التي هي مواصفاتها.. إن ذلك ميسور يمكن الحصول عليه والوصول إليه.

وهكذا رُتبتْ الزيارة.. كانت أشبه بطيف جميل راح يداعب أجفاني لحظة إغفاءة.. كان وسيما حقا.. قامة فارهة، ملامح تشدك إليها.. بشرة تميل إلى البياض.. تلك هي المواصفات بعينها.. حزمت أمري.. توكلت على الله وخطبت.. وعقدت ودخلت.. فذهلت.. ولكنني تمالكت أعصابي حتى لا تتحول ليلة الفرح إلى ليلة ترح.. كانت على النقيض من شقيقها.

قامة قصيرة.. عود يميل إلى الذبول.. بشرة سمراء.. ملامح عادية.

لقد اهتزت الصورة أمام عيني في عنف.. لابد وأن أتصرف بعقل وحكمة.. فالشابة بريئة لا ذنب لها.. لن أهدر لها كرامة.. أو سمعة.. لن أفقدها أعز ما تملك.. لابد من الانتظار..



مضت السكرة.. وجاءت الفكرة.. كان القرار وقد مضى ما يربو على الشهر.. تسريح بإحسان.

عوضني الله خيراً

نعم عوضني الله خيرا في «أم عبدالرحمن» التي كانت مسك الختام في صفحة الزيجات، كان ذلك في شهر رجب عام ١٣٨٠هـ. كانت السكن الذي أرتاح إليه.. كانت الأم.. الزوجة.. الأخت.. البنت.. انها جميعا هؤلاء مجتمعات.

- السكن حيث الراحة.
- الأمومة حيث الأولاد.. والحنو.
- الزوجة حيث الايثار.. والطاعة.
- الأخت حيث المشاركة.. والسند.
- والبنت حيث الطاعة.. والبر.

إنها النسيج.. والمزيج من كل هذه الصفات.. من كل هذه السمات.. كم هي رائعة وفية أم أولادي.. «هيلة قاسم العنقري».

لن أزيد على ذلك.

تجربة فاشلة

لأني أنسى.. وأحمد الله على ضعف الذاكرة التي أراحتني من هموم أمسي.. ومشاغل نفسي كي اتفرغ لمواجهة الساعة.. وما تحمله بين طياتها من خفايا، فإن القليل القليل من التجارب الفاشلة هي التي أبقت عليها الذاكرة للذكرى لعلها تنفع المؤمن.

يقول المثل: (أعط العيش لخبازه.. ولو أكل نصفه).

وهذا صحيح.. ولكن ما الحيلة إذا ما أصر صاحب الطحين أو العجين أن يتدبر أمر خبزه بنفسه دون سابق معرفة.. نيئاً.. أو محترقاً؟ تلك هي النتيجة.. ماذا عن التجربة..؟

في الرياض.. المناسبة غرس نخلة في حديقة الدار التي أسكنها.. كان مفروضاً أن أستعين بمزارع يرعاها.. يسقيها جرعات الماء.. فلا عطش.. ولا تخمة.

كان مفروضا أن أترك الزمر للزمار كما يقولون دون تدخل فضولي.. إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث.. توليت أمر سقياها وليتني ما توليت.

يوم أن غُرستْ النخلة كان الظاهر للعيان من ساقها يتجاوز المترين

بقليل.. وإن هي إلا أيام حتى بدأت تحفر بحوافرها المستترة باطن الأرض.. تتقزم شيئاً فشيئاً وعلى صفحات سعفها شحوب يؤذن بالخطر.. ارتداد نحو الأرض بدلا من امتداد نحو السماء ولسان حالها يردد قول الشاعر:

فيـــا لـــــه مـــــن عمـــــل صـــــالح

يرفعـــــــــــه الله إلى أســـــــــــفل

ومن مترين وزيادة فوق مستوى الأرض، تتقلص القامة إلى ما دون المتر ونصف.. وبالنهاية.. شرقت النخلة، فغرقت، فماتت بالسكتة المائية، مأسوفا على شبابها..

وأخرى..!

في مدينة الخبر حيث أعمل، مَرِضْ الطباخ ذات يوم.. كان طعامنا المعتاد الشبه يومي يتكون من الأرز.. والأرز كما يعرفه الفاهمون بعلم الطبخ يحتاج إلى تصفية.. إلى «شخل» أي إلى تفريغ الماء بعد درجة حرارة معينة.. ثم إعادته إلى القدر من جديد كي يستكمل نضجه.. بعد أن يضاف إليه ما يضاف.

مشكلتي أنني أجهل.. ومشكلتي أكثر أنني أجهل أنني أجهل.. لقد تركت للموقد وسعار ناره أذابة حبوب الرز.. حينها وبعد أن استدت واشتدت صلابة وتماسكاً حاولت أن أستخلص منها الماء لأعيدها إلى قدرها.. إلا أن الزنبيل بما فيه تحول إلى كتلة لاصقة بعضها في بعض، يطفو على سطحها ماء سُدْت أمامه منافذ التصفية.. فلا الماء خرج.. ولا الأرز أمكن إعادته إلى حلته.. ولكي لا يكتشف أحد خيبتي تسللت بعيدا عن الأنظار كي ألقي بالزنبيل وما فيه إلى جوار البحر.. حيث الكلاب.. والجرذان التي لا يهمها على أي شكل جاء.. وبأي طبق قُدِّم.

أدرك تفاهة التجربتين.. فهما على هامش الحياة الذي قد لا يهم.. إلا أن الذي يهم من خلال بعض المحاولات الفاشلة هو أن نستمر ونستمرىء دون

مشورة قد تفضي بنا في نهاية المطاف إلى فشل أكبر وأكثر خطورة، ذلك أن خطأً صغيراً نقع فيه دون أن تمنحنا التجربة درساً للتصحيح أو التراجع قد يجرنا إلى مصيدة نكون أفراداً أو جماعة أسرى لاحباطاتها.. وأفرازاتها المدمرة.

موقف ضاحك

وأنت تزاول عملك الوظيفي لابد وأن تواجهك بعض المواقف الكاريكاتورية.. أذكر موقفين اثنين رصدهما شريط الذكريات لطرافتهما.

أحد الفراشين في الإدارة تعود على الغياب أثناء ساعات العمل.. أو التأخر عن الحضور أحيانا.. كان لابد من مواجهة هذا التسيب.

إنذار بعد آخر.. إلا أنها جميعها لم تحسم الموقف.. لم تصحح الخلل.. ولم يكن البد من حسم المرتب.

شعرت بوجوده دون استدعاء على غير العادة.. طرح على هذا السؤال:

- كم تقبض من المعاش..؟

وبدهشة لا تخلو من استنكار:

- ماذا يهمك من المعاش..؟ ثم لم السؤال؟

كان يعرف أنني أعرف حكاية الحسم.. والخصم من المرتب.. فأنا الذي وقعته.. ولكي أستذكره وصولاً إلى ما بعده فقد حاول.. أن يعيدني إلى حجمي.. أن يشعرني أني رقم تافه صغير حتى بالنسبة إلى رقمه هو.. رغم إني رئيس.. ورغم أنه مرؤوس..

أعاد سؤاله مرة ثانية.. وفي أصرار..

- قل لي كم تقبض من المعاش؟

سؤال ملح.. ماذا لو خلصت من سؤاله.. إنَّ شيئاً من الواقع لن يتغير..

كان يحدجني لحظتها بنظرات هي مزيج من الغضب.. والاستنكار.. والسخرية.

أفضيت له بما لا يدخل في خانة السرية.. وبما يعرفه.. قلت له.

- إن معاشي هو كذا.

أجاب في خبث.

- أعرف ذلك.

سألته:

- وما دمت تعرف فلم السؤال..؟

أجاب..

- لكي أقدم لك عرضاً جيداً تتقاضى عليه ضعف مرتبك الشهري..؟

وحين سألته..

- أين.. وعند من؟

ابتسم في مكر.. وقال:

- عندي.. إنني على استعداد لأن تستقيل من وظيفتك وان تعمل معي

حيث أعمل.. كان جاداً في عرضه.. صادقاً في حديثه بعد أن كشف لي في صدق أوراقه.. ونشاطاته خارج دائرة وظيفته.. وإسهاماته في الأراضي.. نشاط في العقار.. تشغيل لسيارات أجرة.. كانت هي الشغل الشاغل لعدم مواظبته..

الذي حيرني وأصابني بالذهول.. وألح علي دون أجد له إجابة مقنعة حتى اللحظة.. هذا السؤال وهو:

- وهو يملك كل ذلك.. لماذا أقدم على وظيفة فراش متواضعة الأجر؟!

من منكم يدلني على الإجابة المقنعة..؟!

قلم الديكور

الموقف الكاريكاتوري الثاني يختلف.. بطله مواطن في ريعان شبابه.. كانت له معاملة لدى الإدارة يلزم رصدها في سجل الوارد.. ومن ثم رصدها في سجل الصادر.. وتصديرها على أن يعطى لصاحبها رقم المعاملة.. والجهة التي وجهت إليها، بغية المتابعة. وهذا يعني فوات يوم أو يومين قبل أن تأخذ مسارها من جديد..

شعر صاحبنا أنه من الصعوبة بمكان عدم قدرته على تسلم معاملته بيده.. ولما كانت الرغبة لديه.. بل والضرورة ملحة جاءت محاولته أشبه بالضراعة التي استجاب لها قلب الموظف.. ودفعته إلى أن يستأذن تجاوزاً للعادة.. واختصاراً للوقت.

نسيت أن أشير إلى شكل صاحبنا.. كما وصفه لي موظف الصادر.. وأكدته بعد ذلك الرؤية الخاطفة وهو يقدم الشكر على تسهيل مهمته.

قامة فارهة.. يرتدي من الثياب أحلاها وأغلاها.. عباءته السوداء تنم عن وجاهة.. أقلامه الذهبية الثلاثة تزين صدره ببريقها..

يخيل لك وأنت تتطلع إليه أنه سبق زمانه أناقة وثقافة وذوقا.. لا يهم

الشكل.. ماذا عن المضمون..؟!

رصد الموظف معاملته في سجل الصادر.. حدد رقمها.. وكان على صاحبها أن يوقع بالاستلام. حين طلب منه ذلك هوى بكفه وقد أفرد إبهامه في انتظار (استمبة) يلوّن بها أصبعه.. يوقع بها إيذانا بالاستلام.. وحين أشعره الموظف أن عليه أن يوقع بقلمه وهو الذي يحمل في جيبه أكثر من قلم واحد، ضحك في برود.. قائلاً:

- هذه، سلمك الله، ديكور.. للزينة..!

إي والله، هكذا تفوه بالكلام، ولا عزاء للاقلام.

نقطة ضعف

في حياة كل حي نقاط ضعف يستشعرها لخصوصيتها.. رغم أنها قد تكون قاسما مشتركا أعظم بالنسبة لغيره.. هذه النقاط قد تأتي على هيئة هزال جسدي.. على شكل ضعف ذاكرة.. توتر أعصاب، بلادة حس، وأشعر في داخلي أنني أحس وأكاد ألمس بعضها تتجذر في كياني..

ضعف الذاكرة إلى درجة أنني أهرش رأسي وأعقد الخنصر والبنصر كي أتذكر وجبة غداء تناولتها منذ ساعات.. حتى أسماء الأصدقاء كثيراً ما اختلطت عليَّ فأوقعتني في حرج.. ومرج.

دوار الرأس، فكثيراً ما أحس أن سقطة تنتظرني وقد أطَلْتُ الوقفة.. إلى درجة أنني أبحث عن عمود يسند ظهري لحظة وقوف، خشية الوقوع..

ويتجسّد الضعف أكثر وأكثر أمام مشهد مؤثر.. إنسان يُعذَّب.. إنسان بتعذب.. لحظة وداع حزين على جادة الموت.. مريض يتأوه على فراشه.. كلها مشاهد لا تقوى عليها أعصابي تسلمني للبكاء.. وأحيانا للسقوط.. أذكر يومها أني زرت صديقا يعالج في مستشفى شركة الأرامكو بالظهران.. ما إن وطأت قدماي المستشفى واجتزت ممراته وصولاً إلى الغرفة التي يحتلها

المريض حتى أصبت بدوار الرأس.. بإغماءة مردها الضعف وعدم القدرة على التحمل.. وكانت السقطة.. لأجد المريض الذي جئت للاطمئنان عليه هو نفسه يقف إلى جواري للاطمئنان علي..

ورحلت أمي

لم تكن قبلها بشهور تعاني من أي شكوى تشكل لها مشكلة ذات خطورة.. مجرد روماتزم يحد من حركة سيرها.. لذا فقد كانت مفاجأة قاسية يوم أن هاتفني شقيقي الدكتور محمد البواردي يرحمه الله الذي كان يعمل بمستشفى الملك فيصل التخصصي.. طالبا مني سرعة الحضور إلى الرياض لأن صحتها تدعو إلى القلق..

وحول سريرها الأبيض أدركت الحقيقة الموجعة والمفزعة.. إن أيام العمر معدودة.. لقد داهمها مرض السرطان دون أن تحس.. لأنه خبيث لم يسفر عن وجهه إلا بعد أن توغل في جسدها.. لحماً.. ودماً.. فارقَتْ الحياة خَيرَ أُمٍّ (منيرة عبدالرحمن العنقري) عام ١٤٠٧هـ. لقد أحس ابن الثمانية والخمسين عاماً أنه يتيم دونها.. ما زال يقضم عود الوداع المر حتى آخر نفس.

وضاعت الأهداف

الكاتب إذا تجمد مداد قلمه أشبه بالسمكة إذا خرجت من الماء، إنها تموت.. ولكي أبتعد عن بؤرة الخطر ويتجمد مداد قلمي المتواضع كان التواصل مطلبا ملحا ينازلني.. وينازعني..

ألفيت الفرصة أمامي متاحة كي أعاود الكتابة عبر نافذة يومية جديدة تحت عنوان (السلام عليكم) في إحدى صحفنا اليومية التي يربطني باسرة تحريرها تعاون.. وثقة..

قرابة أعوام خمسة لم يكدر صفو الزاوية أية شائبة.. وبرحيل رئيس تحريرها.. وإحلال آخر جاءت الصدمة مبكرة بالنسبة لأسلوب التعامل...

«المسخ» و«النسخ» و«السلخ» تحولت إلى قاعدة متعمدة تطال كلماتي.. يومها. صبرت، وانتظرت. قلت في نفسي: لعلها (كبوة) غير مقصودة تنتهي باستمرار التواصل.

لم تكن كبوة.. بل جاءت مقصودة متعمدة لم تتغير.. أسدلت فصولها يوم أن قصمت القشة ظهر البعير.. المناسبة يوم أن فاز فريق المملكة للشباب لكرة القدم في شرق آسيا.. كان فوزا غاليا استحق الإشادة.. وما هو أكبر من

الاشادة.

المهرجانات.. الأفراح.. وهذا من حقه.. إلا أن أفراح الانتصارات في الكرة يجب أن لا تحجب عن مداركنا هزائم أكبر وأخطر على المستوى القومي.

كانت تلك الانتصارات والأفراح والليالي الملاح مدخلا لكلمة بعثت بها إلى الصحيفة قلت فيها:

«إنه ما زال في شباك مرمانا نحن ثلاثة أهداف إسرائيلية.. هدف في سيناء، وآخر في الضفة الغربية وغزة، وثالث في الجولان. وإلى حين نَرُدُّ لإسرائيل في مرماها الأهداف الثلاثة فإن الانتصار والفرحة لن تكون كاملة..».

فوجئت بعد نشر الكلمة بزميل يهاتفني بنبرات وعبارات ساخرة.. لا تخفى على السامع:

- ما شاء الله - قالها ممطوطة - اليوم عرفنا إنك كاتب رياضي متحمس!.

قلت له:

- وماذا في هذا؟ فريق وطني.. من حقي أن أفرح وأن أشيد بانتصاره.

ألا أنني ذكرّته بأن الانتصار الكروي جاء مدخلا لما بعده من انتصار مأمول على خارطة تحرير أراض عربية محتلة..

ويبدو أنه لم يفهم.. كان له العذر.. سألني:

- أية أراض عربية محتلة..؟! لا وجود لذكر أية أراض عربية محتلة في كلمتك..!

انتظرت بضعة أيام إلى أن جاءني العدد.. وكانت الصدمة: لقد أفرغت الكلمة من مضمونها.. وجردتْ من جوهرها..

وفي حوار ساخن مع رئيس تحريرها قررت أن لا أعاود الكتابة فيها أيا كانت المغريات المادية؛ وكانت موجودة.. إنها تسقط بسقوط حائط أخلاقيات التعامل والسلوك..

لا أخالني الوحيد الذي مر بهذه التجربة واصطدم بصخرتها.. وأدمت أقدامه أشواكها.. فالشائكون كثيرون.. والشاكون أكثر.

ورحلة الحرف لابد لها من مثابرة ومصابرة كي تجتاز العراقيل.. والصدمات التي بدونها تهون حركة الرحلة إلى درجة الهوان.. والانكفاء..

إن مسالك الحرف كثيرة.. يُوصدُ مسلكٌ حيث لا تهوى.. وتنفتح مسالك أخرى لا تضن بحرفك، ولا تظن بقصدك.. لأنها الصدى لايقاع الحياة..

أتهمني بالجنون

ولأن الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.. فقد طرأ جديد على مستوى مصداقية البعض بحيث أفسد للود كل القضايا.. وبجرة قلم.. ولكن من طرف واحد.. لست هو ذلك الطرف..

مرة وقد صدر لي كتاب (رسائل إلى نازك) الذي يتناول في مادته بعض التناقضات في حياة الإنسان.. ومن خلال تصرفاته داخل ذاته.. وخارج ذاته.. هذا الكتاب اهديته لابنتي نازك..

اتخذت من نفسي محوراً رئيساً للتناقضات والتضادات.. جعلت منها كبش فداء للآخرين الذين قد يعتقدون.. أو حتى يتوهمون أنني أعنبهم بما أكتب.. أو أشير إليهم..

أذكر حينها أن هاجمني ابن رئيس تحرير صحيفة يومية بكل قسوة وحدة اتهمني فيها بالجنون، بل طالب بمحاكمتي..!

وتساءلت: ولِمَ المحاكمة.. ما دمت مجنونا؟.. فالمجنون تسقط في حقه التهم!! ولا يحاكم.

وآخرون

لا أنسى أيضاً.. وهل يمكن أن أنسى ذلك الغبار الكثيف المتصاعد.. الذي تطاير في وجهي انطلاقاً من أعمدة الكلمات الساخطة.. ومن المنابر المحتجة.. ذلك أنني أثرت، من خلال كلمات كتبتها، إمكانية إيجاد فصول ابتدائية متقدمة – أي للسنوات الثلاث الأولى – تكون مختلطة للبنين والبنات وتحت إشراف.. صارم.. رغم انتفاء المحاذير.. لأن طلبتها أطفال صغار لا خوف منهم ولا خشية عليهم.. ولسبب بسيط افترضته.. وقد أكون على خطأ.. من يدري؟ قلت:

«ربما أفاد هذا الاختلاط في رسم صورة مبكرة في أذهانهم بعد أن يشبوا عن الطوق.. وبعد أن يأتي دور البحث عن شريكة الحياة دون تلمس في الظلام أو حاجة إلى امرأة تعشق وهم يتزوجون!

هذا في وقت لم يكن للتلفاز وقنواته الفضائية وجود على خريطة الإعلام.. والتوجيه..

لقد جاء الاستنكار في حينه حاد النبرات.. صارخ العبارات.. لأن مطلبا متسرعا – ربما – وغير مألوف تمخض عن ردة فعل معاكسة.. كانت هي الأقوى..

مسرحية لا تخلو من عتب

مَنْ قال:

«إن مع كل خطوة سلامة» حتى لو جاءت في صيغة التمنيات؟.. ذلك أن الخطوات على جادة حرف تشدك قسراً من مسلك ضاق بك.. إلى مسلك آخر لم تكتشفه.. لم تدرك سهولته.. ولم تتعرف على وعورته.

قد يُفسِحُ لك ذلك المسلك صدرَه فما يضيق بالاقتراب.. وقد يُفسح لك ذلك الصدر إلى حين ثم يشعرك بالاغتراب رغم أنفك.. وقد يحبس أنفاسك من خلال إيقاعات حادة ثم يأخذك في رتم هادىء منساب ينسيك صخب ما مضى.. وكأن شيئاً لم يكن..

حزام الزلازل

ومسرحية العتب.. ولا أقول مسرحية العبث ذات فصول أربعة، بين وصالها وبين انفصالها خيط رفيع أمكن الابقاء عليه لأن الثقة تحكم نسيجه رغم ماطرأ على ذلك النسيج من شد وجذب كاد أن يمزق أوصاله.. ويقضي على وصاله.. ولكن تبقى الثقة.. ويتأصل الوصال.

أية فصول..؟ كيف حصل هذا؟ وأين؟ ولماذا؟ صحيفة يومية أكن لها.. وللقائمين عليها كل الحب.. اعتادت أن تنشر لي زاوية نصف أسبوعية اختارت لها هي مكانا على صفحتها الأخيرة.. عدة شهور انقضت.. وفجأة دون إخطار.. أو إخبار، أو حتى إشارة اعتذار، انتزعت من حيزها الذي تحتله لتحل مكانها زاوية أخرى لكاتب آخر.. أو لكاتبة أخرى. ساعتها قلت في نفسي معزيا:

- لا يهم أن يأتي مكانها أيٌّ من صفحات الصحيفة.. وإنما المهم أين تأتي مكانتها في ضمير المتلقي.؟

وجدتها بعد أن تاهت ثم تأرجحت داخل حيز محشور في إحدى زوايا الصفحات الداخلية.. وما أن اطمأننت على تواجدها لفترة قصيرة حتى توارت

عن الانظار.. لقد طردها الإعلان.. وأطال في مطاردتها. أدركت أن اختيارها في تلك الصفحة كان اختياراً غير موفق.. ولأنها زاوية ثابتة، والزوايا الثابتة في عرف الصحافة يجب احترام مكانها ومكانتها لجأت إلى المسؤولين راغبا إليهم انتشالها من حزام الزلزال الإعلاني الذي أنهكها وهدَّ حيلها.. إلى أي مكان آخر.. وللحق تمت الاستجابة وإن طال بها الانتظار حيث استقرت الزاوية بشكل أسبوعي أرجو أن تكون في مأمن بعد طول تعب وطول عتب.

قصة قصيرة

وتتلاحق الفصول.. ويتلاحق معها الفضول.. ففي الملحق الأسبوعي لتلك الصحيفة نشرت قصيدة لي تحت عنوان (بكائية سراييفو) تناولها بشكل مثير ومستفز أحدشعراء الحداثة «حلمي سالم». ولأن القصيدة تتكون من قرابة المائة والخمسين بيتاً فقد كتم أنفاسها بشكل تعسفي بحيث لم يظهر من القصيدة في مضمار نقده!! أكثر من هذه السطور التي اجتثها وبنى عليها حكمه المشكوك في سلامته:

الويل لنا كل الويل

حين تمُد على الذلة يد

حين ندير لعادينا الخد

سوف يحاكمنا المستقبل في محكمة التاريخ

لابد لنا من رد

إن لم نملك صك براءهْ

فالحكم علينا إعدام

هذا ما أظهره.. وأشهره.. وصرخ في وجهه، مجردا له من كل قيمة

شعرية.. كان في نقده، لو جاز أن يطلق عليه نقد، أشبه بمن قرأ: (لا تقربوا الصلاة) ثم لاذ بالصمت دون أن يستكمل الآية.. يستكمل بها الدلالة والمعنى..

من حق الناقد، رغم تجاوزه، أن يعبر عن رأيه.. فذاك شأنه.. ومدى إدراكه.. حتى ولو جاء ذلك الرأي مهتزا.. متجاوزا الواقع.. مبتعداً عن صلب الفكرة المطروحة على بساط الغربلة والتحليل.. قلت: من حقه.. فحرية الرأي لا يجوز لجمها وإخراسها أيا كانت التداعيات والدعاوي المثارة والمثيرة، لأن الرأي لابد وأن يحسم بالرأي من خلال البحث الاستقرائي العلمي.. والجدل المنضبط الموصل نحو القناعة بخطأ الفكرة أو صحتها.

من هذا المنطلق بعثت إلى الصحيفة التي نَشَرَت النقد بالرد، تساءلت فيه. ومعه موجها كلماتي إلى الشاعر حلمي سالم:

- أين هي القصيدة أولاً..؟ إذ لا وجود لها في معرض استعراضه.
- لماذا اكتفى بالسطور القليلة الأخيرة منها وهي قفلة لسرد من الصور والتداعيات الحسية والنفسية؟!
- ثم أينها نقاط الضعف المستترة خلف حجب المجهول الذي تعمده. كي لا تُرى؟!

قلت في ردي:

«الناقد أشبه بالطبيب، قبل أن يحُكّم مشرطه لابد وأن يتعرف على مكمن الداء ليجتثه.. فأين هو الداء؟ بل أين هو الدواء؟».

لا شيء من كل هذا.. بعثت بالرد ولم ينشر.. رغم أن نشره حق لا جدال في أحقيته. أعدت الرجاء من جديد تذكيراً لعل الذكرى تنفع المؤمنين.. ولكن.. أما الأسباب فعلمها عند ربي..

آخر فصول مسرحية العتب.. ولا أقول مسرحية العبث جاء على شكل مثير للغرابة.. والحيرة. ومرة ثانية.

كلمة لغيري

فوجئت أن كلمة لغيري محشورة داخل الزاوية التي أطل من خلالها على القارئ.. الكلمة أو الضيف غير المرغوب فيه جاء مذيلاً باسمي.. لاحقت سطور الكلمة حرفا حرفا علني أهتدي إلى كلمة واحدة لها مشروعية الانتساب إلى قلمي.. فلم أجد.. قلت وأنا أبحلق في سطورها غير مصدق:

لابد أن خطأ غير مقصود هو الذي حدث.. ولكن ما ذنب كاتبها بحيث يجرد اسمه من عطاء هو ملك له..؟

وما ذنبي أنا في كلمة غريبة محشورة داخل اطار زاويتي لو اكتُشِفَ أمرها؟.. إن تهمة السرقة سوف تطاردني دون ذنب.. لابد من تدارك الخطأ.. وتصحيحه. وهكذا فعلت.. كان ذلك سريعا بواسطة جهاز الفاكس وعن طريق مكتب الصحيفة نفسها.. تبلغت الصحيفة برغبتي الملحة في سرعة التنويه عن الخطأ.. وظل ذلك الخطأ قائما حتى يومنا هذا دون تصحيح. ومن حسن الحظ أن أحدا لم يشر إلي بالسبابة صارخاً في وجهي متهما أياي باستلاب أفكار الغير.. ربما لأن قراء الزاوية من الندرة بمكان..

ومع كل هذه الفصول التي مرت بي، وربما مرت بالكثيرين غيري.. فإن

تجارب كثيرة كان التواصل بالنسبة إليها اطارا واقيا لمظلتها أبقى على استمراريتها رغم بعض العثرات هنا.. وهناك، لأن لا تجربة دون أخطاء، ولا عطاء دون تسامح.. ولا حب دون إيثار ويبقى الحب أكبر من صرخات العتاب لو أنها جاءت. وبالنسبة إلي فقد جاء العتب هامساً ملامساً لشغاف القلب، حتى لا يجرح مشاعر الأحبة.. ويبقى الود ما بقي العتاب.

وأخيراً أسدل الستار على النافذة استكثر صاحبنا أن تظل مفتوحة فأوصدها بالضبة والمفتاح غير مأسوف عليه ولا عليها؟

المشي هوايتي

كان الخمول بالنسبة إلي سيد الموقف.. إذ لا حركة تذكر.. كرسي عمل ألتصق به بضع ساعات.. سيارة لا تكلفني أكثر من دق (سلف).. ثم سكن آوي إليه وقت الظهيرة ألتهم فيه وجبة غذاء غنية بنشوياتها بعينين شبه مغمضتين على مقربة من الفراش.. ثم صحوّ أشبه بالنوم لأنه ميت الحركة يسلمني إلى جلسة سمر وسهر ممتد ينتهي مكانه بازدراد لقيمات لا بأس بها من وجبة سليق ساخن، فإغراق في النوم من جديد.

هكذا دواليك اعتدت كغيري من الكثيرين.. أحسست أن قدَمَّي تكادان تنوءان بحملهما.. استشعرت الخطر وقد تجاوزت الأربعين.

الغدد تفرز.. الكرش يكبر ويتضخم.. لابد من الحركة.. فالحركة بركة، وبالذات في المشي.. من ترك المشي تركه المشي.. تلك حقيقة لا يتناطح فيها عنزان.

لتلك الأسباب اتخذت من رياضة المشي هواية شبه يومية ملازمة أمارسها ضبطاً للتوازن الذي لابد منه بين «الحمل» ووسائط «النقل» حتى لا تختل المعادلة.. وتتعطل دواليب الحركة.

ولُدغْت من جُحر ثلاث مرات

المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولقد لُدغتُ من الجحر ثلاث مرات ربما لأنني «مغفل» كبير.. هذه المرة على حساب جيبي.

مشكلتي مع نفسي أنني حسن الظن في الآخرين إلى درجة السذاجة والعبط.. إذ لا تواجد لمفردات الحذر والحيطة في قاموس حياتي..

- اللدغة الأولى:

على غير معرفة به.. مد يده إلى مسلّما.. شد بقبضته على يدي في حرارة.. عرَّفني بنفسه، لم يكن اسم أسرته غريباً على ذهني.

كان «ذكيا» يعرف من أين تؤكل الكتف.. امطرني بالثناء والمديح إلى حد الخجل.. قال:

- انه معجب كل الاعجاب بكتاباتي.. لا يفوته منها شاردة ولا واردة إلا قرأها!!

ولأن مركب النقص نقيصة ملازمة للبعض ممن يمتهنون حرفة الكلمة تأخذهم النشوة في المديح فقد وجَدَتْ كلماته المعسولة هوى في نفسي انفرجت لها أبواب الرضى على مصاريعها ومصارعها.. اقترب من مكتبي أكثر وأكثر..

وبمحاذاته مد لي أوراقاً كبيرة وكثيرة.. كشفها ورقة بعد أخرى.. رسوم وشارات.. وخطوط.. قال في أدب جم يواري خلف قِناعه الكثير من المكر:

- هذه رسومات وخرائط لشارات الطرق السريعة.. حصلت على مهمة تنفيذها.. ولهذا الغرض جئت إلى بيروت لإنجاز عملية التنفيذ.. وفعلاً اتفقت مع جهة مختصة.. غداً صباحاً سيتم ابرام العقد. وأنا في حاجة ماسة إلى ثلاثة آلاف ليرة كعربون مبدئي للاتفاق.. ولسوف أعيده إليك مع كامل الامتنان يوم السبت، أو الأحد على أبعد تقدير.

كان يوم أربعاء أغبر جمعني به.. صدَّقته بعد أن نفخ في صُوْر غروري إلى درجة الهبل.. استلفتُ من أمين صندوق المكتب الآلاف الثلاثة.. نقدتها إياه.. خط ورقة استلام بالمبلغ ناولني إياها حمل نقوده وخرج.. مضى سبت.. وجاء سبت.. ويوم يسبت لا يأتي وقد وعد.. راح شهر وتلاه شهور.. انتهت السكرة وجاءت الفكرة.. وبدأ التساؤل؟!

كيف الوصول إليه؟! أعرف اسمه الا أنني أجهل عنوانه.. كتبت إلى صديق يتولى شئوني حيث يتواجد، على الأمل في الاستدلال عليه.. استرداد السلفة.. ان هي إلا أسابيع معدودة حتى جاءني الرد يحمل خيبة في عيبة.. فقد وقعت ضحية احتيال لم أكن أول ضحاياها، ولن أكون آخرهم..

هكذا جاءت القرصة.. أدركتها بعد أن ضاعت الفرصة.

اللدغة الثانية

مكانها عاصمة الألف مئذنة.. جمعتني به الصدفة.. يتسم بالرقة في حديثه إلى درجة الهمس.. عرفني بنفسه، عرفته بنفسي، بعملي.. عرض علي خدماته إن كنت في حاجة إلى عون أو مساعدة.

أيامها كنت أبحث عن شراء سكن.. ألفيتها فرصة ذهبية بحكم طول أقامته.. ووجدها فرصة ذهبية للوصول إلى مبتغاه.. أكثر من لقاء.. في المكتب.. وفي الشقة التي استأجرتها بشارع أبو الفدا بالزمالك، كان حريصاً أن يأتي موعد وجوده متفقاً مع وجبة أفطار أو غداء للمشاركة على الرحب والسعة فطعام الفرد يكفي لاثنين وأكثر.

ماذا عن الشقة الموعودة؟! إنها موجودة وغير موجودة أما الأسباب فمختلفة.. صلاحيتها.. موقعها.. ثمنها.. اعتدت على زياراته.. رددت له الزيارة مرة واحدة في شقته التي يملكها في الدور الأول على مقربة من الجسر الموصول بين الزمالك وحي بولاق.. شقة واسعة إلا أنها متواضعة الفرش.. فتحات أجهزة تكييف مسدودة دون تكييف.. سيارة أثرية ضخمة الجثة لا تتحرك دواليبها إلا بالدف، لا شيء في ذلك فالحياة حينها تتسم بالتقشف.

هاتفني ذات يوم ليتأكد من وجودي بالمكتب.. كنت موجوداً.. قال لي:

- مشوار الطريق.. وسأكون عندك إذا كان الوقت للزيارة يسمح.. كان الوقت يسمح له ولغيره.. نصف ساعة أو ما هو في حكمها.. جاء وهو يتأبط حقيبة جلدية متوسطة الحجم. استقر به المكان، انتزع منها بعض الأوراق التي تشير إلى أعمال قام بها لبعض الجهات الحكومية في بلده، فشهادة من إحدى تلك المصالح تؤكد أنه أدى عمله على خير وجه.. كانت تلك الأوراق كافية لتصديقه.

انتهت الأوراق.. ونطق اللسان.. قال لي:

- ان مبلغاً لا بأس به من المال أنتظر وصوله في غضون أيام أو أسابيع على أكثر تقدير.. إنه مستخلص لحقوقي المتبقية من أعمال انشائية قمت بها هناك.

صدقته.. قال لي:

- أنه يقوم بمشروع سياحي مشترك في رأس البر يوشك على الانتهاء.

صدقته.. كل هذا لا يعنيني.. لماذا لا أصدق؟.. ومن التصديق إلى التحديق.. لقد رجاني فيما يشبه الضراعة.. ودموع لا أدري من أين جاء بها تتسلل فوق خديه.

- أرجوك.. أرجوك أنا في حاجة ماسة لخمسة آلاف دولار في حينها..

ناولني ورقة استلام ضممتها إلى نظيرتها السالفة الذكر داخل الملف.. تصرمت حبال الأيام والشهور.. ماتت الحمارة وانقطعت الزيارة كما يقول المثل، لم يعد في حاجة إليها فقد عاد بالغُنم.. طرقت بابه مرة.. قيل لي أنه غير موجود.. وأخرى وجدته، استقبلني داخل صالونه القديم وقد تغيرت معالمه.. الأثاث مختلف.. الفتحات بدون أجهزة تكييف أصبحت بأجهزة تكييف.. ولم لا؟ إن دولارات المغفلين قادرة على صنع العجب.. والتعجب!!

حين ذكَّرته.. قال وفي عينيه عبث لا أفهم له معنى:

- أرجوك.. تقدير ظروفي الصعبة.. أنا لا أملك ما أرده.. عليك أن تنتظر.

قلت في نفسي:

- لماذا هو نفسه لا ينتظر تحسين شقته؟ ما دام لا يملك رد السلفة.. لماذا أقدم عليها؟ انتظرت. طال الانتظار.. عيل صبري وطال انتظاري..

مضت على هذه اللدغة قرابة العشرين عاماً وما زالت ظروف صاحبنا صعبة صعبة في انتظار مجيء الفرج!! أي فرج؟!

بين حين وأخر أشتاق إلى الورقتين الاثريتين داخل إضبارة الملف.. أقلبهما يمنة ويسرة أستعيد بهما تاريخاً لا يسر.. تراودني فكرة شيطانية حمقاء:

- لماذا لا أبلّهما.. واشرب مَيّتَهما.. كما يقول إخواننا في مصر؟

حتى في هذه الحالة فإن شيئاً لن يختلف.. ستظل ذكرى التغفيل عالقة في ذهني ماثلة في خيالي تتحرك من خلال شريط.. تُذكِّرني.. تنهرني.. تقهرني.. تفرغ في محصلتي نصيحة لابد لي ولغيري من الأخذ بها..

فظن شراً.. وكن منه على حذر..

وأسوأ المثالب أن تظل مغفلاً.. غبياً.. ملدوغاً.. ولا تعي الدرس..

ثالثة الأثافي

«ذات» يوم من عام ١٤١٢هـ تجمع لدى مبلغ متواضع من النقود.. حرصت أن أحوله إلى عملة أمريكية.. ساقتني خطاي إلى أحد الفروع البنكية.. وأمام «الكاونتر» القسم الذي يعني بعملية الصرف نقدته ما في حقيبتي راغبا منه استبدالها دولارات.

ولأنني أجهل من حمار أهلي.. لا أميز بين الدولار والدينار فقد ناولني الموظف وفي سرعة خاطفة بعد أن احصى نقودي.. ناولني ربطة مشدودة إلى بعضها البعض.. مائة ورقة فئة المائة دولار.. وخمسين ورقة أخرى فئة المائة دولار أيضاً.. خمسة عشر ألف دولار جديدة لها خرفشة.. وملمس خشن.. تسلمتها بحسن نية.. أودعتها حقيبة جلدية صغيرة كنت أحملها دون ان أطلب إيصال الصرف اللازم في مثل هذه الحالة – كنت مغفلاً – تأبطت الحقيبة بما فيها كمن تأبط شرا..

عدت من حيث أتيت. وكلت إلى أحدهم أمر صرف عشرة آلاف دولار.. تحويلها إلى العملة المحلية.. إن هي إلا ساعات حتى جاءني الخبر الصاعق..

- الـدولارات جميعهـا مزيفـة.. ولـيس بعـضها. يـا للهـول.. لقـد أُعِـدَّ المحضر.. تم حجز حاملها رهن التحقيق الجناني.

أما وقد وقعت الواقعة فلم يعد أمامي فترة للانتظار.. كان علي أن أتحرك في شتى الاتجاهات لعل وعسى.. اتصالات هنا.. وأخرى هناك لتدارك خطورة الموقف.

كانت الخطوة السليمة في الاتجاه الصحيح أن أهرع إلى أقرب مخفر للشرطة لا يبعد كثيراً عن سكني تَدْخُل في إطاره مسؤوليته هذه القضية.. كنت أحمل في جيبي الخمسة آلاف المتبقية من العملة المزورة.. وأمام المسؤول كان السؤال:

- اسمك.. جنسيتك.. عملك.

وتدرج السؤال عن العملة.. لمن؟ وممن؟ وكيف؟ ولماذا؟

أسئلة كثيرة مثيرة.. وإجابات بحجمها.. أكدت للمسؤول أن من ألقي عليه القبض غير معني بالأمر.. قلت له:

- إنها تجارتي الخاسرة.. وتجاربي الفاشلة لوحدي.. حددت له من أين؟ وكيف؟ إلى آخر علامات الاستفهام والاستجواب.. والتعجب.. قلت له:

إن المبلغ أكبر مما حاولت أبداله.. مددت له العملة الباقية.. الخمسة

آلاف دولار المشؤومة.

تم قفل المحضر.. توقعت أن كل شيء سوف ينتهي عند هذا الحد.. حد المصادرة للعملة المزيفة.. كان التعامل معي خلالها كريما.. لم أشعر خلاله بنبرة نابية.. ولا حتى بنظرة حادة.

طلبت من المسؤول أن يمنحني ورقة واحدة أستشهد بها.. وأستدل كوثيقة إثبات.. ولم يتردد فقد منحني الورقة مع صورة من محضر التحقيق.

عدت إلى سكني تنازعني صور شتى.. ماذا بعد؟ وقيل لي:

- إنّ ما تم هو المدخل لفتح باب القضية وليس إغلاقها.. لابد وأن يحال الموضوع برمته إلى المحكمة.. والمحاكمة.. فالحكم.

بعدها بيوم طرق باب السكن ضابط.. بكل أدب أشعرني أن علي في حدود الساعة العاشرة صباحاً مراجعة مأمور القسم.

في الوقت المحدد كنت موجوداً.. وفي مكتب آخر أمام ضابط آخر يتسم وجهه بالصرامة والجمود كان السؤال:

- من أنت؟

بعد أن أجبته قال في برود يجمد الأعصاب:

* أنت صاحب الدولارات المزورة؟

أجبت:

- نعم.. أنا هو بشحمه ولحمه.. وعظامه طلب مني وثيقة السفر.. مددتها له.. أبقاها إلى جانبه.. وراح يقلب أوراقاً متناثرة حوله.

لحسن الحظ لحظتها دخل المسؤول.. لحَظَ وجودي.. سلّم علي في رقة.. وجلس.. كان الإجراء يقتضي حجز وثيقة السفر كإجراء احتياطي خشية الهروب.

كاد يتم هذا.. لولا أن المسؤول أشار إلى زميله بإعادة الجواز. فأنا جارهم ولا خشية من هروبي.. فإحالة الأوراق إلى المحكمة صبيحة الغد.. ونحن في منتصف النهار.

عدت إلى السكن مثقلاً أجرجر أقدامي.. امصمص شفتي الجافتين.. غداً سوف أمثل أمام «القاضي».. الأمر خطير جداً.. الحجز ينتظرني.. والحكم يخيفني.. ماذا أنتظر؟

نصحني صديق يحتل مركزاً مرموقاً أن أغادر في سرعة.. أن أثبت سلامة موقفي من حيث أتيت.. أن أتصل بالمسؤولين الذين في مقدورهم وحدهم كشف أوراق اللعبة..

الساعة الثانية ظهراً.. لم يبق على إقلاع الطائرة أكثر من أربع ساعات ونصف.. مكاتب الخطوط ساعتها كانت مقفولة.. البنوك بدورها مغلقة.. لابد من تحويل عملة صعبة من أجل الحصول على تذكرة.. لابد من الحجز.. ومن

مكتب إلى آخر أمكنني صرف قيمة تذكرة الرحلة.. أما الحجز فإن بالإمكان انجازه من مكتب الخطوط داخل المطار.. الساعة الخامسة إلا الربع.. أين الطريق إلى حمام بنجاب.. كيف السبيل إلى المطار؟. كيف الوصول إليه ومدخل العمارة كما توهمت مُراقب؟ ومن يدري فقد يكون اسمي مدرجا ضمن قائمة الممنوعين عن السفر؟

افتراضات خشيت أن تترجم إلى واقع.. ولكن ماذا يهم فالغريق لا يخشى البلل.. لم أتردد في المحاولة.. كان علي أن أحتاط ما أمكن إلى ذلك سبيلا.. وحتى لا يكتشف أمر المحاولة اكتفيت بلبس الثوب وحده.. فلا طاقية.. ولا غترة.. ولا عقال.. أما الحقيبة الصغيرة فقد تسلل بها السائق نحو السيارة دون أن يلحظه أحد..

في المطار أمكن استخراج التذكرة.. وفي مداخل المطار.. وأمام ضابط الجوازات كانت دقات قلبي مسموعة مضطربة.. وداخل ردهة الانتظار قبَعتْ وبي خيفة. برأس مكشوف على غير ما تعودت عند كل سفر..

صديق صاحب مكتبة على معرفة بي سلم علي بيده.. أما نظراته فكانت شاخصة تكتشف الرأس الأصلع ربما في غرابة واستنكار ودهشه.!

آه.. لو كان يدري؟

حلقت الطائرة في كبد السماء.. تنفست الصعداء.. لم يكتمل أحساسي

بالأمان الا وأنا اجتاز الحدود الإقليمية بعيداً عن رهبة العودة.

أمام مسؤول كبير شهم هو صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز يرحمه الله وأمام ساعده الأيمن وشقيقه الأمير أحمد كان لي لقاء.. الحديث ذو شجون.. فأنا في ورطة.. أسرتي هناك.. وأنا هنا.. وإذا كنت في مأمن هنا فمن يضمن لي ما قد يجري هناك.. ثم إلى أي مدى سوف أظل معلقاً بين الغار والنار؟ لم يطل الانتظار، فقد أبت روح الشهامة العربية فيهما إلا أن تتحرك وفي سرعة على شتى المسارات والأصعدة.

- رصد عملية التزوير.. ومن وراءها.. كانت المتابعة والتحري.. انتهت إلى تحديد أطرافها.
- المسار الثاني الأكثر عزماً وحسماً ذلك الذي يتعلق بوضعي المعلق بين العودة واللاعودة.. بين البراءة أو الأدانة.. فقد حسمها وفي سرعة سموه من خلال رسالة إلى نظيره حملها مندوب خاص تتضمن التعريف بشخصي الضعيف.. وأن لا ناقة لي ولا جمل من خلال سير حياتي التي يثق فيها سموه.. ويزكيها..

مرت أيام أشبه بالأعوام في طولها.. خلالها كان الهاتف على بعد يرن كل مساء أستطلع من أسرتي المستجدات.. وكلها تتمثل في كثرة الطارقين للباب سؤالاً عني..

- هل اختفيت..؟ هل سافرت؟

وكانت الإجابة:

- لقد سافر ليقيم الدعوى.. وليثبت سلامة موقفه.

أقل من شهر خلت الانتظار خلاله دهراً.. فالغربة القلقة الموحشة عن الأولاد دقيقتها أطول من يوم.. وجاء الفرج الذي انتظرته.

رن الهاتف.. المتحدث صديق غالٍ يحتل مركزاً مرموقاً في وزارة الداخلية.. قال:

- أبشر فقد عاد المبعوث يحمل رسالة تعفيك من المسؤولية.. والملاحقة.. فقط إذا ما رغبت أن تبدي رأيك فيها كشاهد.. وليس أكثر.

قال:

- إن عليك أن تعود واثقا مطمئناً متى شئت.

قلت له:

- ومن يضمن أن لا أجد في انتظاري من يجهل النتيجة السارة التي سقتها لي.. لابد من صك براءة أحمله في يدي متى دعت الحاجة إلى ذلك.. وهي تدعو بكل قوة..

لم يتردد الأمير الوزير الشهم في أن يسمح لي بصورة من خطاب الرد الذي أعاد لي حريتي وحركتي.. وبراءتي.. عدت.. لا شيء مما خشيته.. ولأن

الذوق يقضي بأن أمثل أمام قاضي المحكمة الابتدائية للشهادة ولقفل باب القضية سارعت برفقة المحامي الذي تابع القضية واستحضر ملفها.. وأمام القاضي كانت الأسئلة التي لابد من طرحها.. والتهم التي لابد من توجيهها..

- أنت متهم بكذا.. وكذا.. وكذا..

كان يعرف كل شيء.. ومع هذا لابد من اتهام. كانت إجاباتي بالنفي قاطعة.. كما هي الحال بالنسبة لأي متهم.. حتى ولو كان قاتلا.. صمت القاضي لحظة.. حرك شفتيه وكان يتطلع إلى كاتب الضبط والربط:

- براءة المتهم من كل التهم المنسوبة إليه لسلامة نيته.

همس القاضي في أذني وأنا أشد على يديه.. لا أدري هل كان جاداً.. أم أنه يداعبني:

- وددت لو أننا استضفناك ولو لليلة واحدة في الحجز.

وما أدراك ما الحجز؟

كلانا على حق

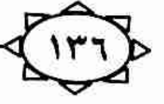
رفيق درب اعتز بصداقته رأس تحرير صحيفة يومية ناجحة في عهد صحافة الأفراد أعطى لها من جهده الكثير بحيث أصبحت تقف في الصف الأول قراءة وجذبا للقارئ..

ساهمت بتواضع في الكتابة فيها عبر زاوية يومية تحت عنوان «السلام عليكم» استمرت عدة سنوات.. واستجد ما استجد.. لا أدري هل ترك الصحيفة أم تركته المهم أنها خسرته في وقت كانت في أمسِّ الحاجة إلى جهوده..

صدرت المؤسسات الصحفية.. عاد إليها من جديد كرئيس تحرير.. وفي لقاء حميمي معه للتهنئه بادرني برغبة في أن أعود إليها كأحد كتابها شريطة أن ألتزم بالكتابة فيها فقط دون سواها..

قلت له وبصدق إنني ملتزم بالكتابة في مجلتين من خلال زاويتين تحتفظان بمجموعة كبيرة من المواد للنشر.. ولن أسمح لي أدبيا ومبدئيا التخلي عن ذلك الالتزام..

أدرك تماما ان الربح المادي سيأتي مضاعفا وربما أكثر فالمؤسسة التي



يرأسها الزميل المحترم تدر أرباحا طائلا ومغرية.. إلا أن الالتزام المعنوي والأدبي يسبق خيار الربح المادي..

اعتذرت وكان معي حق.. واعتذر هو وكان معه حق.. وبقينا أصدقاء دون أي عتب.

حيرة

سمحت لنفسي أن أعتب عليه.. ويبقى الحب ما بقي العتب.

تملكتني الحيرة إلى درجة الدهشة.. ومن زميل عزيز اعتز بصداقته ومصداقيته. لم الحيرة..

أنه رئيس تحرير صحيفة تصدر كل مساء أعطاها من جهده الكثير وبشكل مثير للإعجاب..

كان لي معه زاوية استغرقت وقتا لا بأس به..

توقفت الزاوية لتوقف الصحيفة نفسها..

انتقل إلى مكان آخر كرئيس تحرير لصحيفة أخرى..

جددت معه اللقيا عبر زاوية أخرى تتحدث عن عالمنا العبثي تحت عنوان «عالم تضحك منه وعليه» كانت مشروع كتاب وضعته بين يديه.. لم يتردد في نشر الكثير من كلماته.. وبالمجان.. المادة لا تعنيني..

فجأة توقف نشر باقي الحلقات دون سبب.. بحثت عن السبب لم أجد الإجابة.. كان صامتا ربما محُرجا.. أو أن شيئا في مزاجه قد تغير..

تمنيت عليه في أكثر من مهاتقة أن يعيد إلي ما لم ينشر من حلقات إذا كان

نشرها متعذراً أو يطلق سراحها كي ترى النور..

ولأكثر من خمسة أعوام أخذتني الحيرة.. ورحت أتساءل مع نفسي:

- لماذا لا يعاد ما لم ينشر باعتباره جزء من مشروع كتاب تهمني طباعته..؟!

أين هي المشكلة؟ وأين هو السر في الصمت؟ وأين هو المكسب في الابقاء على ما لا ينشر؟

حتى هذه اللحظة ما زال الجواب في علم الغيب.. الغريب أن الذي جرى لا يمثل شيئاً من طباعه الحسنة التي أعرفها.. ولكن لكل فرس أو فارس كبوة..

ما زال عتبي عليه قائماً.. وما زال حبي له قائماً..

إنها المرة الأولى في علاقتي بكل رؤساء التحرير.. السؤال الذي يطرح نفسه:

- هل إنها سُرقت؟ أم انها ضاعت؟ أوانها أحيلت إلى التقاعد دون إخطار؟ وبقي محُرجاً دون جواب؟!.. لا أدري.. ربما

الظلام يخيفني

أكره الظلام وأخشاه إلى درجة الرعشة والوحشة كان أهلنا يزرعون بذور الخوف في أعماقنا وهم يرددون .. «جتكم عوافيَ الله» ولأننا لا ندري معنى هذه الجملة كان إدراكنا الطفولي يجسد لنا صورا من العفاريت والأشباح.. وبالذات الظلام وما يوحي به من مرئيات وتوهمات وتخيلات نأخذها على علاتها دون أن نملك الوعي بحقيقتها.. وسبر عالمها ومعالمها، عتمة الليل تصيبني بدوار الرأس.. وقلق النفس.. منذ كنت صغيراً وأنا أتحسس خطواتي وأعدها واحدة بعد الأخرى تراودني الوساوس والظنون.. ترسم أمام عينيَّ ما يشبه الأخيلة المفزعة.. والأشباح المرعبة.. أكاد لا أصدق أن مخلوقاً آخر من غير عالمنا يلاحقني تارة.. أو يوقظني من سباتي مرة.. أو يطبع خطواته من حولي مجيئة. وذهابا..

ورحت أتساءل.. أهو وَهْمُ الخوف.. أهو ما يشبه كوابيس الحلم.؟ أم أنه الشيء من العلم الذي لا أملك له تفسيرا؟!

تلاحقت المرئيات وتداعت المشاهد بين عيني.. تارة على يقظة.. وأخرى وأنا أغط في نومي العميق.. أبحث مع نفسي عن إجابة تُفَسِّر لي المشهد كما شهدته مساء على صِغَر.. وكما شاهدته عصرا على كِبَر..:

المشهد الأول

في الثالثة عشرَة من عمري وبعد أن أديت صلاة المغرب في مسجد شيحان بشقراء وعدت قافلا نحو البيت أجرجر أقدامي ولا أقدر على التفاتة قد تصيبني بمصيبتها.. فتحت الباب الخشبي بيدين مرتعشتين. قفلت الباب من خلفي.. تسلقت درجات السلم الأولى.. أحسست وقع أقدام تلاحقني.. الباب موصد.. لا أحد من خارج الدار معي! ولا أحد من داخل الدار كان في انتظاري.. ترى من يكون ذلك الدخيل الغامض؟! أَوَهْمٌ هو؟! أم شبح؟ أم مخلوق من عالم آخر؟ لا فرصة للتساؤل.. ولا مكان للانتظار.. وبشكل لا إرادي أدرت وجهي إلى الخلف.. وكانت المفاجأة أو المواجهة المرعبة..

أنها هي بعينها. وعلمها.. بوجهها وجسمها.. وقد اسندت نهديها على يديها وهي تخطو خلفي.. إنها «سويلمة» القريبة منا والتي تقيم معنا.. ولكن من أين جاءت لا أحد خارج الباب ولا داخل البال.. هيَ؟!.. لا ليست هي.. إنها مخلوقة غيبية في هيئتها.. ازداد إحساسي بالوحشة والخوف انطلقت كصاروخ أطوى درجات الدار.. والمساحة الموصلة إلى المطبخ حيث يُعد الطعام.. يا للهول! إنها (سويلمة) ذاتها أمامي إلى جوار المقرصة كما هي

عادتها عند المساء.. سويلمة التي كانت تجري خلفي دون أن تلحق بي. وسويلمة الثانية التي كنت أجري بحثا عن الأمان من الخوف في كنفها فوجدتها بلحمها وشحمها وصاجها المشتعل بالنار..

أي المشهدين يمكن عدم تصديقه؟ حتى الآن ما زالت صورتا سويلمة الأولى وسويلمة الثانية مرتسمتين في خيالي وقبل خمسة وسبعين عاماً كما لو كانت بالأمس..

المشهد الثاني

انتهى مشهد المراهقة المبكرة. وجاء مشهد الشيخوخة المتأخرة كما لو أن الصورة تعيد نفسها ولكن بملامح مختلفة..

يومها كان ظهر يوم ثلاثاء. شيخ طاعن في السن يتوسد وسادته ويغط في نوم عميق.. فتح عينيه على صوت يوقظه من سباته كي يؤدي فريضة العصر..

حسنا الصوت صوت حفيدي.. والوجه وجه حفيدي.. وحفيدي يسكن في بيت والده المجاور وما تعوَّد في مثل هذا اليوم وهذه الساعة التواجد في دارتنا..

قلت في نفسي هذا خالد جاء على غير انتظار.. وقيل له أيقظ جدك من النوم كي يصلي.. بعدها جاء الحفيد نفى أنه كان في بيتنا يومها.. وأنه قام بإيقاظي.. وتأكد لي صدق كلامه يوم أن أجمع أفراد أسرتي عدم وجوده وأن لا أحد كلفه قبلها بمثل هذه المهمة.

المشهد الثالث

بعدها ببضعة أيام وأنا في ساحة الدارة أحتل مقعد أستريح عليه. الوقت مساء في حدود العاشرة والربع تناهي إلى سمعي وقع أقدام تذرع المكان من حولي جيئة وذهابا.. لا أحد يشاركني المكان. الأقدام وإيقاعها ما أن تبتعد رويدا حتى تقترب من جديد إلى درجة أنني خشيت أن تصدمني..

هل إنها وسوسة. أو هلوسة..؟ هل إنها الوهم الذي يتجسد كما لو أنه حقيقة.. أم أنه الحقيقة التي لاندركها لأن حكمتها في سرها..

أشعر أن كثيرين غيري مرت بهم شواهد لمشاهد غيبية.. وغريبة لا يملكون إدراك كنهها.. ولا تحليلها.. إلا أنها بالقطع أخذت من حياتهم جانبا من التأمل.. وربما أيضا من الوحشة التي عاشوها ثم عايشوها باعتبارها واقعا غامضا من وقائع حياتهم المليئة بالغراية؟

قذائف من الوزن الثقيل

لأكثر من عشرين عاماً كتبت في صحيفة الجزيرة من خلال زاويتي اليومية «السلام عليكم» عن الفراغ الذي لابد من ملئه بما يجدي ويفيد درءا لمخاطر الفراغ و محاذيره.

طالبت بدور عرض سينمائية.. ومسارح في المدن الكبرى تقدم لزوارها أعمالا فنية تعيد إلى ذاكرتهم تاريخ العرب.. وتراثهم.. وأنشطة مجتمعاتهم المختلفة التي تحويها تلك الأعمال الدرامية والكوميدية.. تحت إشراف الدولة لإجازة الصالح منها.. وابتعاد الطالح منها.. باعتبارها عنصر جذب لكامل الأسرة خارج أسوار البيت قامت قيامة المعارضين الذين أمطروني بوابل من الشتائم والسباب. وما هو أشد ضرادة وقسوة عما قاله مالك عن الخمر..

المنابر لم ترحم.. والأفواه لم تهدأ.. والأقلام جف مدادها وقد استوعبت كل ما في جعبتها من خبر..

تابعتها عدداً عددا وبعيد نشر الكلمة.

تسع وعشرون صفحة في صبيحة كل يوم لتسعة وعشرين يوما متتالية

أعلنت النفير وهي تلقي قذائفها من الوزن الثقيل دون أن تكل أو تمل.. وأن ترحم..

استرعى انتباهي للكثير مما نشر ضحالة وضآلة الفهم لما يعنيه المسرح الذي أطالب به..

تبادر إلى ذهني حقيقة واحدة أن الفهم الخاطئ لا يميز بين مسرح تقدم فيه أعمال جيدة وجادة ومفيدة تثري المشاهد وتمنحه جرعة استراحة وراحة هو في حاجة إليها تقتل جزءا من فراغه.. وبين الخمَّارة.. أو «صالة القمار» أو «الملهى» السيئ السمعة..

فات هؤلاء أننا بلد مسلم بطبيعته محكوم بنظام لا يقبل الإخلال بعقيدته. ولا إحلال ما يتعارض مع ثقافته الدينية والاجتماعية والأخلاقية..

ما زلت أحتفظ بالتسع والعشرين صفحة طيبة الذكر التي وقفت حائط صد ضد أمنية ما زالت قائمة حتى اليوم نحن في انتظارها بفارغ الصبر.. لعل. وعسى.

للتذكير.. قبيل نشر كلمتي التي أثارت الكثير من الجدل والاحتجاج كانت لدينا بداية مسرح.. وبضع دور عرض سينمائي في بعض أنديتنا الرياضية دون هياج واحتجاج.

ما الذي تغير؟! وأين هي المشكلة كي لا نعيد فتح الباب من جديد كثقافة

ملتزمة ومحترمة لا غبار ولا مآخذ عليها؟!

نسبة كبيرة من الأسر السعودية تغادر وطنها بحثا عن أنشطة متاحة ومباحة خارج حدودها.. لو أنها وُجدت لو فرت الكثير من جهدها.. ومن استقرارها الجسدي.. والمادي..

إعارة لا تُرد

في القاهرة حيث كنت أعمل رَغِب صديق عزيز يومَها كان طالبا يُعدُّ لرسالة للدكتوراه عن وطننا الغالي تزويده بمراجع تساعده على أداء رسالته.. شعرتُ بالسعَادة أن أجدَ العون وأعينه تحقيقا لطموحاته.. ومن مكتبتي الخاصة زودته بعدة مراجع عن المملكة إلى جانب بعض المؤلفات ذات العلاقة. حصل الطالب على درجة الدكتوراة بتقدير جيد.. انتظرت إعادة ما استعاره مني.. وما زلت أنتظر بعد مرور قرابة عشرين عاما مضت وانقضت. صديقنا المسافة بيننا وبينه ليست بالبعيدة.. ولكن مساحة رد الجميل كانت هي الأبعد: سامحه الله. ومن يومها أعض على مكتبتي بالنواجذ..

بعدها.. وضعت عنوانا ملازما ولازما لكل كتاب احتفظ به داخل مكتبتي المتواضعة في الرياض تقول كلماته: وهي لشاعر قديم:

إذا استعرت كتابي أو شغفت به
فاحرص وقيتَ الردى من أن تغيره

واردده لي سالما إني شغفت به
لولا مخافة كتم العلم لم تره..

حكاية الحمارين

قبل سنوات عدة عُقد في الشقيقة قطر مؤتمر دولي شارك فيه الأصدقاء والاعداء على حد سواء بما فيهم صندوق النكد الدولي تحت شعار ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب وسوء المآب.. استفز بشكل صارخ الحمارين «هيهان» و«جحشان» وراحا ينهقان بشكل جنوني ويركلان الأرض في غضب هياجا حادا واحتجاجا على انعقاده وما يرمي إليه من أخطار تطال مستقبل المنطقة اقتصاديا. وسياسيا وأمنيا..

كان هذا قبل «الخريف العربي» المروع.. ولعله كان المؤشر لما سوف تأتي به الأعوام.. إن لم أقل الأيام..

يبدو أن هذا الإزعاج والاحتجاج الحميري أثار حفيظة من لا يقرأ الأحداث بعين الحذر.. والحيطة.. فأسدل الستار على الفضية الحميرية بحسن نية.. وقصد.. مجلة «اليمامة» كانت المسرح لتلك الشكوى غير الطبيعية الخارجة عن المألوف.. أقفل الباب.. لم يعد بعدها إطلالة أسبوعية.. العتب على الحمير التي غضبت من أجل قضية استهان بها الإنسان.. ورفضها الحيوان.. اعتقادا منه أنه على حق.. ومن يدري!! أيهما على الحق؟!

هل تاب.؟!

تخيل وأنت تذرع بخطواتك قارعة الطريق في أمان الله أن يستوقفك إنسان لا تعرفه ولم تلتق به طيلة حياتك ويطرح عليك سؤالا ظالما ظلاميا ومستفزا قائلا بكل وقاعة وبجاحة:

- هل تبت؟!

لحظتها سوف تصاب بصدمة ودوار رأس.. وسيتنازعك هاجسان.. هاجس مقابلة الصياح بصياح.. وهاجس إيماني عقلاني يأخذ في حسبانه مقولة الآية الكريمة.

- وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

ومقولة الشاعر الحكيم:

إذا نطق السفيه فلا تجبه
فخير من إجابته السكوت..

هذا عن الخيال.. أما عن الخبال الواقعي فله حكاية تتوافق مع هذا الحلم الافتراضي لأنه علم واقعي جرت على النحو: أستاذ جامعي تغطي لحيته الكثة نصف صدره استوقف ابن أخي الطالب في الكلية التي يعمل بها أستاذه..

وسأله عن صلة القرابة بي.. إجابه الطالب في عفوية:

- هو عمي..

تغيرت ملامح وجه أستاذه.. تجهم.. وقال:

- هل تاب؟!

لم ينبس ابن أخي ببنت شفة.. تملكه شرود الصمت.. وحسنا فعل.. وحسنا قال لي ما حدث.. وما حدث استرجعت به ومعه شريطة ذكريات الماضي يوم أن طالبت قبل نصف قرن بإنشاء دور عرض مسرحي وسينمائي تمتص الفراغ الموحش والخطر.. حينها لم تكن هناك قنوات فضائية تشغل الفراغ.. وتحد من خطورته.. ويومها كفرني من كفَّر. وطالب بمحاكمتي من طالب.. وهاجمني من هاجم.. لم اكترث لتلك الزوابع.. ولم تأخذ الدولة مشكورة موقفا يستجيب لكل تلك الادعاءات والتهجمات.. وتساءلت مع نفسي هل إنها بعض الرواسب من الماضي ما زال يحتقن بها ذلك الأستاذ الجامعي؟ ويطالبني بالتوبة والتكفير عما سبق؟ عقدت الخنصر والبنصر.. ضربت أخماساً لأسداس.. وما زلت أعقدها وأضربها وأتساءل في دهشة مشبوبة بالرثاء:

- هل ما زال لدينا وعلى مستوى الجامعات نماذج تفكر بظلامية ظالمة وتكفر؟! وإذا كانت الإجابة نَعم فأية خطورة تشكل ثقافة النشء وتوجهاته الذهنية

المتفتحة.. المتطلعة إلى فهم واع للحياة بوجهيها العلمي الديني.. والعلمي الدنيوي؟ أخشى على الحاضر من الماضي.. من رواسب ظلاميته وظالمة.

مطبات على الدرب

في حياة الكاتب.. أي كاتب محطات سالكة.. ومحطات غير سالكة يقع في شراكها على غير انتظار ودون إشعار.. إنها أشبه بالكمين الذي يعد للطائر من أجل اصطياده.. والحد من حرية حركته..

وفي دربه محطات.. ومطبات كثيرة تجاوزتها إيمانا بالمقولة.. «من سار على الدرب وصل».. حتى ولو جاء وصوله مجهدا.. وشاقا. ومحزنا..

المطلب الأول

زميل التقيته في أكثر من محفل ومناسبة ثقافية.. ما إن يشهدني حتى يأخذني بالأحضان وحرارة اللقاء.. مرددا على مسمع مَنْ حولنا مقولته التي تتكرر.. ولا تتغير:

* على هذا تتلمذتُ وأنا طالب..!!

يعني على حد قوله أنني كنت له في يوم من الأيام بمثابة معلم.. وما أنا بمعلم لأحد.. ولا بأستاذ لأحد.. ولكن لتكن مجاملة منه.. إن لم أقل نفاقا لا أستطيبه دأبنا عليه في علاقات بعضنا البعض..

هذا ما يدعيه.. لتكن التجربة على المحك إذاً بين القول والفعل..

كنت على رأس عملي في قاهرة المعز.. خطر لي طباعة أحد مؤلفاتي.. يومها أعطيته لأستاذي الجليل الشيخ الجاسر لهذه الغاية.. حمل الكتاب معه.. وبعثه مع خطاب منه إلى ذلك الزميل وكان مديرا للنادي الأدبي في مدينته بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه من إحدى جامعاتنا الإسلامية الكبيرة..

لا عذر للاعتذار عن طباعته.. فهي وظيفة النادي.. ولا عذر للاعتذار عن

طباعة الكتاب من زميل يرى في مؤلف الكتاب أستاذا قديما له تتلمذ على يديه ولو من باب الوفاء أو المجاملة.. ولا عذر أيضاً في رده. والوسيط شخص بقامة الجاسر وقيمته.. هكذا كان التصور.. وجاء ما ليس في الحسبان.. أعيد الكتاب إلى شيخنا مشفوعا بالاعتذار عن طباعته لأنه لا يتفق وسياسة النادي.. وربما أيضاً أنه غير جدير بالطبع..

هاتفني الشيخ يرحمه الله.. وهو يغالب وسط فمه ضحكة ملؤها الاستغراب والرثاء.. وربما السخرية قائلا:

.. تلميذك المزعوم رد بضاعتك، ردها علينا لأنها غير صالحه للطباعة..!

الكتاب (المهمل) هو «وللسلام كلام».. إطلالة على الحياة الإنسانية بصورها المتجانسة والمختلفة لا تمس الديانات في شيء.. ولا السياسات في شيء.. إنها مجرد خواطر تستشرف الكون.. والإنسان الذي يعمره بآماله.. وآلامه.. الكتاب استقبلته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بالترحاب وطبعته بتاريخ ١/ ١/ ١٤٠١هـ كأحد إصداراتها..

ربع قرن أو يزيد على المطب نسيته.. فمن نعم الله الكبيرة علي أنني أنسى كي لا يرهقني ثقل الحمل.. صدفة أعادت إلي الذاكرة قصة الأمس البعيد.. حكاية الاعتذار حين قرأت بحثا قدمته إحدى طالباتنا النابهات عن الشعر الوطني عند سعد البواردي نالت عليه درجة تقدير متقدمة أهنئها عليه..

من بين المراجع للبحث مقالة كتبها الزميل ذاته في إحدى المجلات يقول فيها بالحرف الواحد ما نصه:

* سعد البواردي شاعر عمودي واضح ينظر إلى الشعر من خلال الوطنية النفعية. إلا أن له إلمامات عجلى بهذه الألوان المستجدة. وتخطيه إلى تلك الألوان يهبط بفيناته لأنه لم يعد شاعر غموض ونثريه. وإن تكلف ذلك وادعاه.. ومن تجاربه النثرية «تجهمي ايتها السماء» و«اليوم أرفع رأسي».. ويستمر قائلا:

ولقد وقع البواردي في مأزق سواء كان شاهلا بالعروض أم خطأ عفوي في قصيدته «تلك بلادي يا فلنتينا».

قراءة أتقبلها من الزميل بصدر رحب وإن كنت أختلف جذريا معه في رؤيته النقدية الشعرية.. فهو ينتمي إلى مدرسة أصالتها محصورة ومقيدة بقيد الإلزام.. وأنا أنتمي إلى مدرسة أصالتها متحركة تؤمن بالمعاصرة والتجديد الحركي دون الاخلال بالموسيقي والايقاع الشعري.. والسؤال: المطب هل هو اختلاف في المذهب الفكري.. أم أنه خلاف يتجاوز حدود الطرح الأدبي.. أخشى أن يكون الثاني..

أكون متجاوزا لحجمي نرجسيا وطوباويا لو أنني استشهدت بمقولة الشاعر:

أعلمـــــه الرمايـــــة كـــــل يـــــوم
فلـــــما اشـــــتد ســـــاعده رمـــــاني
وكـــــم علمتـــــه نظـــــم القـــــوافي
فلـــــما قـــــال قافيـــــة هجـــــاني..

فلا أنا أستاذ.. ولا هو تلميذ.. وهل يتساوى من يحمل دكتوراه ومن يحمل شهادة ابتدائية..؟.. ولكن المطب مليء بتساؤلات متقاطعة بين الاعجاب.. وبين ما يُتعجب منه.. ما زالت محيرة لا خيارات لي في إذابة جليدها بين موقفين متعارضين من فرد واحد.. ثناء من جانب.. وانثناء عن إثبات هذا الثناء من الجانب الآخر.. هذا الرئيس السابق للنادي كرمته الدولة في مهرجان الجنادرية وصف نفسه بالتكاملي..

المطلب الثاني

زميل آخر أشاركه مهنة المتاعب.. لم ألتق به في حياتي للأسف.. عشته فكرا.. وعايشته متابعة من خلال ما يكتب.. وما أكثر ما يكتب.. مثقف.. يتملك ناصية الحرف باقتدار.. صدم مشاعري ذات يوم.. يوم أن شن هجوما شرساً وضاريا تجاوز حدود العقل والعدل على مسلسل «طاش ما طاش» مستعديا عليه الجهة الرسمية التي سمحت به. واحتضنته.. ورعته ماديا.. ومعنويا باعتباره قناة توجيه لا اسفاف فيها ولا ابتذال..

استفزني منه هذا الموقف.. وتساءلت مع نفسي كيف لمثقف أن لا يكون نصيراً لثقافة الوعي وسد الثغرات في حياة مجتمعه؟ أليست رسالته الفكرية.. كما هي رسالة طاش ما طاش الفنية؟ استكثرت عليه كثيراً هذا الموقف تجاه برنامج بكل المقاييس ينتظره ملايين المشاهدين عبر أكثر من قناة عربية كل مساء.. وما زال عرضه مستمرا.. ونسيت الأمر.. وما أكثر ما أنسى.. الزميل الكريم يبدو أن ذاكراته تحتفظ بمخزونها وتوظفه في الوقت المناسب.. اختلافي معه حوَّله إلى خلاف تجاوز حدود المسلسل.. تحول إلى عقدة لابد من نفثها كي يستريح.. وسنحت الفرصة.. وجدها كما يقول «ارخميدس»..

وآخَر!

مائة عدد مرت في حياة المجلة الثقافية.. أو الملحق الأسبوعي للأم الجزيرة.. كانت مناسبة لأن يكتب عنها من يكتب.. كاتبنا شارك مشكورا بكلمة تمنى على الثقافية رسم خريطة جديدة واسعة للتطوير في مادتها.. مطلب جميل لا غبار عليه.. ولكن الغبار لم يمهل طويلا فقد جاء متناثرا في شكل غمز ولمز مفضوح لا يحتاج إلى مجرد اجتهاد.. استراحة الصومعة استثناء من كل المواد الثابتة رأى فيها إحدى المعوقات للتطوير الذي ينشده.. وبالتالي كي يعطي للثقافية شهادة البراءة بأن كل شيء على ما يرام فإن عليها اقصاء أو أبطاء هذه الاستراحة الثقيلة الظل.. التي تصدر بشكل أسبوعي. وأحيانا في الأسبوعين مرة..

لا أدري كيف فات على زميلي وهو المثقف أن لكل صحيفة و مجلة كُتَّابها الثابتين.. هو نفسه استأثر بزوايا يومية ثابتة في أكثر من صحيفة ولم يستكثرها عليه أحد.. لم يطالب واحد تلك الصحف بزعم التطوير إشراك غيره في ملء مساحة الزاوية اليومية التي يتحرك من خلالها قلمه.. أما (الطائفية) التي زفته إلى الثقافية بكلمة تحمل من التمجيد والاشادة تكفي

لألف عبقري وعبقري فهذا شأنها.. وليت أنها أفصحت عن اسمها.. ويبدو أنها أزكى من أن تكسر مجاديف قناعاتها المبطنة..

أخيرا أذكر زملاء الرحلة.. كلنا طلبة مبتدئون في مدرسة الحياة ندرك منها القليل ونجهل منها الكثير.. لا داعي للمكابرة.. ولا للمناكبات.. ولا للمطبات المؤذية انها تهدم أساسات البناء.. وتقوض روح الثقة والمحبة لأسرة العمل الفكري الواحد.. إنها طعنة من الخلف ترفضها أبجديات الحرف.. وشفافية الكلمة..

الحكاية لها بقية..

زميلنا لم يعجبه العجب ولا الصيام في رجب وإنما انبري في كلمة له نشرتها صحيفة عكاظ وصفني فيها بقوله:

«الكاتب العتيق.. غير المعتق سعد البواردي»

حسنا فقد أصاب الحقيقة.. فأنا كاتب عتيق.. أما الجديد المعتق فأتركه له.. إنه أدرى به..

قال وهو يعنيني بقوله:

«لم أكن في دائرة اهتمامه بسبب غياب إبداعي منذ وقت طويل.. »

أقول له بكل صدق وتجرد:

- لم أدَّعِ يوما الابداع في حياتي.. لست إلا مجرد طالب مبتدئ في مدرسة الحياة بقدر ما عرفت ازددت معرفة بجهلي فيما لا أعرف قال:

أحسنتَ أيها الكبير سنا في إعطائنا دليلا على مستوى أستاذيتك!!

قلت له:

لست أستاذا لأحد.. ولا متسلقا ينافق أحداً بكتاباته.. هو يعرف ماذا أعني!.. مثل واحد ينطبق عليه لا يمكنه الافلات منه ولو حاول:

«رمتني بدائها وانسلت»

الاستراحة التي ضاق بها ذرعا أنكرَ أنه يعنيها مع أنه اسماها في مقاله.. ولا يوجد في الثقافية غير الاستراحة التي أكتب داخل صومعتها.. نكران لا يمكن تصديقه..

الزميل الجديد المعتق!! لا يهمني أن أكون خارج دائرة اهتمامه كما قال.. وأنا بدوري أيضاً لا يعنيني أن يكون داخل دائرة اهتمامي.. لن أخسر شيئاً.. ولن يخسر شيئاً بالمقابل.. رغم أنني كنت في دائرة اهتمامه يوم أن غمز ولمز بالنسبة لاستراحتي التي لم تَرُقْ لسيادته!

وهذا شأنه..

رحم الله امرءا عرف قدر نفسه وأعطاها ما تستحق دون مكابرة.. ودون استعلاء. ودون استعداء. التواضع لا الضعة قيمة الإنسان.. وقمة الإنسان.

انتهى المطب الثاني على غير وفاق.. ولا اتفاق..

المطب الثالث

صديق أكن له كل مشاعر الحب والأخوة.. أهداني مجموعة من دواوين شعره.. تناولت أحدها في زاويتي الأسبوعية بالمجلة الثقافية.. طرحت رؤيتي حول ماتناوله من سرد.. وبناء.. وصياغة بتجرد لا يعوزه الصدق من باب .. صديقك من صدقك لا من صدقك.. كنت صريحا في طرحي لرؤيته الشعرية التي تعتمد في مكوناتها على مقاييس هندسية.. مربعات. وزوايا. ومستطيلات.. هي أبعد ما تكون عن معايير الشعر الذي يعتمد على سلامة اللفظ. وسلامة العبارة. وجمالات الصورة.. وجلال الفكرة.. فوجئت بعد نشرها بيومين برسالة من دونها ثورة البركان.. وطوفان تسونامي.. قال عني فيها ما لم يقله ما لك في الخمر..

وصفني بالناقد الفاقد.. قال عني أنني صحفي نصب نفسه كناقد أدبي بل الأرخص.. ناقد شعري يبتذل ويستخذي ويستجدي في سبيل عرض دنيوي متدن. وتذلل من أجل حفنة أو شهرة.. وإنني ركبت حصاناً ليس لي.. وتسلقت سلما لست جديرا بتسلقه.. وصف استعراضي لديوان شعره بأنه يصلح مادة إملاء في الصف الثاني ابتدائي.. وصفه بركاكة الأسلوب ورداءة

التعبير.. أعطاني صفة التطفل على اللغة في غيبة الصالحين الطيبين.. وبالهذيان.. قال عن ديواني أغنية العودة أنه ابتُذِل من كثرة ما استعمل.. وأن العودة ليست في حاجة إلى أغنية. ومثله ديوان ذرات في الأفق وقد صدرا عن دار الاشعاع.. وتساءل صديقي الغاضب قائلا: أين هي دار الاشعاع وقد فنيت قبل الفطام.. واستنكر بعض العناوين الشعرية «أمام هيكل الحب» و«المعبد» و«سوفانا» و«البرتغال في جوا» و«روبر تسون» و«القيثارة وعندما تتكلم الدماء» و«بدون كأس» و«على منبر النجوى» وتساءل هل للنجوى منبر» وإن كان كذلك أفلا يكون للصمت حديث؟.. كل هذه الأشياء ذكرته بمدرسة أبوللو. قال عني صديقي الغاضب أنني أغرد خارج السرب.. بدلا من المعايشة مع زهير وكعب والمتنبي.. وأبي تمام وحافظ والعشماوي وأمثالهم.. وقال في مكان آخر من رسالته المطولة جدا: «رحم الله امرءا عرف قدر نفسه. ومن يستقزم وهو عملاق أفضل ممن يتعملق وهو يفتقر إلى العملقة.. ركام من مفردات الهجوم الناري الحار وصفتني بجنون العظمة المتوهمة. وافتقادى اللفظ وصواب مراده، وطالبني بالتقاعد رحمة بي.. وبسواي. وأن أنشغل بدنياي أو بأخراي.. وطالبني بقراءة بيته للفهم والتدبر:

مـــن يبـــدع الفـــن في براعـــة

مـــن يبعـــث الـــشعر غـــير شـــاعر

غيض من فيض.. وقطرات من بحر هائج.. وأنفاس حارة من نَفَس طويل لا يكل ولا يمل.. وصفحات مليئة بالصفعات القاسية.. انتصرت فيها الجدلية بالمجادلة التي هي أحسن..

الصراحة تهزم الصراخ.. والصدق يابى الغمز واللمز. وأمانة الحرف ترفض التنكر للمبادئ.. أقول لكل هؤلاء الاعزاء الزملاء.. السقطات في بعض المطبات المميتة التي لا تقتل تقوي.. سقطات الأقلام أمضى وأقسى في الآلام والأيلام من سقطات الأقدام.. ومع هذا يظل القلب عامرا بالحب.. لأن رسالة الثقافة الحقة حب.. ولأن ثقافة دون حب مجرد سخافة ثقافة بلا قلب.

محظوظ جداً!!!

لا تصدقوا عنوانا ينتهي بعلامات تعجب (!!!..) بل معظوظة جدا لو جاز هذا التعبير.. وإذا كان المثل الدارج يقول: من غاب عن عنزه جابت تيس.. فإن عنزي وهي أكثر من عنز واحدة ضاعت في مهب الريح بيدي تارة.. وبيد غيري تارة أخرى.. وفي كلتا الحالتين أنا الملوم.. ولات ساعة مندم..

عيبي غيابي.. رغم أنني قرأت مبكرا قصة ذلك الجار الذي استعار من جاره صحنا إعاده إليه ومعه صحنين صغيرين لاستدراجه.. وحين سأله مندهشاً بهذين المولودين الصغيرين.. أجابه الجار: صحنك أنجبهما.. صدَّق لسذاجته.. ومرت شهور.. واستعار ذلك الجار الصحون الثلاثة ولم يُعِدْها كما هي العادة وحين ذكَّره بصحونه المعارة قال له: لقد ماتت.. دهش الرجل، لمْ يُصدِّق الحديث وقال له متسائلا: الصحون لا تلد.! وهنا ذكره الجار بولادة صحنه الأول الذي لم يستنكر ولادته بل استقبله مع صحنيه في فرحة.. قصة الصحن ذكرتني ببيت طيني صغير ومتهالك اشتريته بصك شرعي منذ خمسين عاماً بمنطقة الصبيخة في الخبر الجنوبية.. دفعت ثمنه من محصلة ما جمعته من مرتب.. البيت لفظ أنفاسه.. تهاوى. وتحول إلى قطعة أرض لا تتجاوز

الثمانين مترا.. فكرت في بيعه.. وحيل بيني وبين ما أشتهي لسبب بسيط إنني لم أدفع الحكر النظامي المترتب عليه.. أبديت استعدادي لدفع الحكر مضاعفا جزاء لي وردعاً لأمثالي، قيل لي رغم انه موثق بصك شرعي أنت لا تملك أرضا.. ستعرض الأرض للبيع في مزاد علني ويمكنك الشراء ودفع الثمن مرة ثانية.. قلت معاذ الله.. والعوض على الله.. وبيت طيني قديم صغير في مساحة شقيقه الأول اشتريته بمدينة الدمام منذ سنوات عدة فكرت في بيعه بعد أن تحول إلى أنقاض.. قيل لي أن هناك مشكلة في مساحة الأرض التي تحيط بالمباني من الجهات الثلاث.. قلت.. اعطوني فقط المساحة المحددة في الصك الشرعي وخذوا الباقي إن كان هناك باقي.. وحتى اللحظة ما زال الحل في علم الغيب..

أعود إلى الحظ المعضوض بشكل أكثر إيلاما.. قطعة أرض بمدينة الخبر على شارعين شرقي وغربي تجاورهما شرقا قطعة أرض.. تقلصت مساحة الأرض التي اشتريتها إلى النصف حسب المخطط لتلك المنطقة.. هذه واحدة.. أما الثانية والتي ما زالت عالقة حتى اليوم دون حل فقد اقتطع جاري جزءا من أرضي أقام عليها مبنى وترك أرضي مشطورة ومنفصلة عن بعضها.. وترك أرضه.. وبعد أن اكتشف الخطأ باع مبناه لآخر.. والآخر باعه لثالث.. وما برحت المشكلة قائمة..

وفي بيروت حيث كنت أعمل اشتريت روفا قبيل الحرب الأهلية في لبنان بعام.. هيأته.. سكنته.. وفي أقل من عام تفجر الوضع الأمني.. تركت بيروت إلى القاهرة.. تعرض الروف للسرقة.. وأخطر من السرقة الاحتلال الداخلي من لدن أسر لبنانية متعاقبة ما زالت تقبع بين حيطانه حتى وقت قريب رغم صدور أمر قضائي يقضي بالاخلاء..

هذا من جانب.. ومن الجانب الآخر للحظ المعضوض أقدمت كغيري من السذج يوم أن بلغت الأسهم أوج ذروتها.. أقدمت على عش الدبابير وقد أغراني بريق الارباح المجنونة.. جمعت.. واعتصرت.. وبعت أعز ما أملك من سكن.. واشتريت.. وانتظرت.. وكانت الكارثة.. في انتظاري.. وكأنما كنت معها على موعد.. ذهب الكثير.. وبقي القليل..

تذكرت المثل القائل «على نفسها جنت يراقش» وقلت في نفسي على نفسي جنيت.. وربما غيري أيضاً شاركني لون الجناية.. حاقت به العضوض.. وعاقت به الحظوظ.. ومع هذا لا شيء يشعرني بالهزيمة.. الخسارة المادية جزء من تجربة حياة قد تكون المادة أسوأ ما فيها لو أنها كانت وحدها هي الريح.

أخيراً.. خذوا الدرس من أفواه المهملين؟ والمغفلين. والمعضوضين.

تباين بين جيلين

جامعة أسرة عربية اتفقت في أذواقها ومزاجها على أن لا تتفق.. تماما كما هي الحال بالنسبة لجامعة دولنا العربية.. جغرافية المولد مختلفة.. اختلاف في الجغرافيا.. واختلاف أيضاً في الديموغرافيا الطباع متباينة.. والأذواق مختلفة.. والميول غير مؤتلفة تماماً كما هي الحال بالنسبة للكثرة الكاثرة من الأسر التي تنتمي إلى أكثر من جيل وإلى أكثر من عَقد واحد.. العُقد الانطباعية تبدو ظاهرة في الحركة.. والتباين في المأكل والمشرب يتحدث عن نفسه بجلاء. ووضوح..

الأبوان هما الأقرب إلى التوافق والالتصاق لأنهما من نبت جيل حكَمته ثوابته. وصقلته تجارب حياته.. وطوعته إلى درجة الانصهار.. أما الباقي فله من حياته.. وثقافته. أكثر من ملمح.. وأكثر من اتجاه..

فيهم.. ومنهم من هو عصبي المزاج.. يثور لأتفه الأسباب. يحُمِّل غيره ما لا يحتمل.. ويحُمِّل أيضاً نفسه ما لا تحتمل.. فيهم.. ومنهم من يرتعب خوفاً من الظلام.. ينام والأنوار الكاشفة تضيء سماء غرفة نومه المغلقة.. ومع هذا الخوف فإنه لا يشبع من مشاهدة أفلام الرعب والتراجيديا وما ترسمه من صور

وأشباح ترتعش لها الأعصاب. فيهم.. ومنهم من اختطفه الانترنيت إلى درجة الأسر إلى درجة أنه لا يرضى عنه فكاكا. كل العظات والنصائح مغلقة الأبواب لا تجد لها قبولا.. لأنه يعيش في عالم آخر مليء بخواطره ومخاطره.. فيهم.. ومنهم.. من لا يستقر على حال يأكل ليسمن.. ثم يُهرع إلى طبيب الأغذية ليتخلص من زيادة الوزن.. وبعدها تعود حليمة إلى عادتها القديمة.. يأكل ليزيد.. ويذهب لينقص.. وهكذا دواليك ذهاب لا ينفع. وإياب لا يشفع.. وتمسك بالرأي الذي بقول.. كُلْ حتى تسمن.. ثم جع حتى تهزل.. ثم عاود الكرة أكثر من مُرة إنها هواية من لا هواية له إلا البحث عن الزمن الضائع بالثمن الضائع..

أما حكاية أطايب الطعام والشراب فحدث ولا حرج.. يبقى الأكل الجيد.. والشراب الطيب أشبه بأطباق ديكورية متراصة على الطاولة تطالها أيدي التقليدين منا فقد تجاوزه الزمن بالنسبة إليهم فهم جيل المكدونالد. والبيتزاهت وأخواتهما.. وجيل البيبسي والكولا ومشتقاتهما..

صراع بين جيلين. وبين ثقافتين يأخذ مداها اتساعاً.. وبُعداً.. ذلك ان لكل زمان دولة ورجالاً.. ولكن في حدود معادلة عادلة تستقيم معها وبها وشجرة العائلة الماثلة.. فلا إفراط.. ولا تفريط.. ولا تباعد يفضي بالشجرة إلى افتقادها مقوماتها وخصائصها وترابطها لكي تأتي الثمرة ناضجة.. حلوة المذاق.

في زمن ما قبل خمسين عاماً كان رتم الحياة الأسرية أكثر ارتباطا وانضباطا.. كان للابوين كلمة مسموعة.. وتغير الزمن وبات عليهما أن ينصتا في طاعة لكلمة الأبناء الأقوى صدى.. والأمضى فعالية خشية أن تؤول شجرة العائلة المائلة إلى السقوط أمام هبة ريح عابثة قوامها افتعال وانفعال وتمرد على روح الطاعة والوصال.. ويبقى الأمل قائما في أن نعود إلى حيث كنا وبأقل الخسائر.. أن نتفق على بعض ما نختلف عليه كي لا ينفصم العقد وتتناثر حباته واحدة تلو الأخرى.

وللحق والحقيقة لابد من الاعتراف بأن لكل جيل سماته وصفاته ومواصفاته وتعامله مع حياته بمذاق هو بالنسبة لغة العصر شئنا أم أبينا لأنه الخيار الأوحد..

شقراء

في عينيهـا ترسَّـمتُ وجـهَ الحيـاة.. وفي عينيهـا توسـمتُ روح الحـب.. صـغيرة جميلـة كطيـف طفولـة يخطـو في ثبـات وعـلى محيـاه ابتسـامة بـراءة.. شبَّت عن الطوق فإذا بها مدينة وادعة واعدة رائعة تجُدِّل شعرها الشقراوي كما لو كانت في ليلة زفاف..

أزقتهـا. داراتهـا. أسـوارها. شِـعابُها. مقـصوراتها. مـساجدها. حاراتهـا. نخيلهـا. أثَلهـا. منابـت عـشبها. أصـوات سـواقيها. ترجيـع مآذنهـا. ضـحكة صغارها. دعابة كبارها. أغنامها. أبقارهـا. رعاتهـا. كلهـا مـشاهد قديمـة لتلـك الـشقراء الناعـسة الجفنـين والتـي تتسع بحجـم سـعة حلمهـا الجديـد الجميـل المتجدد كقصيدة حب. وقيثارة عشق.. كيف لا وهي الشقراء الفاتنة.

كانت عذراء. وما برحت عذراء.. لأن فرسان حياتهـا وحبهـا كُثُرْ بحجـم أهلها وأبنائها وأحفادها الذين يلتفـون حولهـا كالمِعصْم في عنـاق انـتماء. في اشتياق ارتماء. وفي وفاق احتماء يحمي شجرتها الوارفة مـن أن تطالهـا غائلـة النسيان أو النكران.. شقراء عَرَكت عينيها بعد فترة رقود.. وحركتْ ساقيها بعد فترة ركود. صَحَتْ بعد غفوة وغفلة، اليقظة كانت عنوانهـا وعنفوانهـا كغيرهـا

من مدن وطننا الغالي فإذا بحقلها الشقراوي يُزهر. وإذا بسحابة حلمها الشقراوي يمطر. ولكن في رفق لا غَرَق معه ولا إغراق فيه.. كان نصف ربيع تحقق. وما زال النصف الآخر في طريقه حيث بقايا الحلم.

شقراء تحب. تعتب. ولكنها أبدا لا تغضب. لا تتنكر لأحد من أبنائها ولا مِن غير أبنائها الذين حيل بينهم وبينها على ما تشتهي من وصل ووصال.

هكذا الأم الرؤوم لا تعرف الكراهية. ولا تؤمن بالقطاعية.. وإنما بقلب رحب ومفتوح. وبحب غير محدود تمد يديها وعلى فمها ابتسامة نداء..

أن تَعالوا إلى كلمة سواء.. نبني من ثمرة ثرواتكم ما هي في أمِسِّ الحاجة إليه مِن مشاريع تنموية. واستثمارية وخيرية.

حيوها كما تحييكم. وأحيوها بعطائكم ووفائكم.. أليست الأم. وبرِّ الأمومة تقوى؟! شقراء تلك التي تغنى بها الشعراء منذ القِدَم. تبحث عن شاعر آخر جديد مشاعره ليست قصيداً. وإنما مشاريع حيوية وحيَّة داخل مسقط رأسه كي يظل الرأس مرفوعا.. والهامة شامخة شاخصة نحو السماء.. إنه البِرّ. والبِرُّ دَينْ.

أيها المدينة الساحرة.. يا عروس الوشم. كم نُحبكِ. ونحب هذا الوطن بأناسه وجميع أجناسه..

كم نحبك. فمِن زادكِ شبعنا. ومِن ثديك رضعنا.. ومن مائِك نهلنا. ومن

ظلال فيئك احتمينا من قائظة الظهيرة.. أنتِ الكل في الكل.. هل هذا يكفي؟!

تستحقين أكثر من منبر واحد يذكرنا بِكِ. وبِنا. يتحدث عنكِ أيتها الشقراء الشاية.

محطة ضياع

لم تكن لعنة فراعنة كما يعتقد الأولون.. ولا لعنة مثلث يرمودا كما يعتقد المحدثون.. انها لعنة ثالثة محصلتها واحدة اسمها الضياع والفشل لأهم شيء في حياتي.. مقتنياتي من الكتب.. والأنكي جرحا جزء مُهمٌّ من مؤلفاتي..

محطات ثلاث من الضياع.. بدأت الأولى من الرياض يوم أن انتقلت لمزاولة عملي في بيروت.. كنت أحتفظ في دارتي بشارع الجامعة بمكتبة متواضعة تربو على الألف عنوان إلا أنها مهمة في نوعيتها وقيمتها..

كان لزاما علي وأنا أتهيأ للسفر أن أنقلها من أرففها إلى مستودع خارجي حفاظاً عليها.. والدارة تنتظر الساكن الجديد.. وجاء المستأجر صديق أحبه وأعزه اتخذها مكتبا لمقاولاته.. ومكتب المقاولات خليط من موظفين لا يقدرون حق صاحب الدار بقدر ما يهمهم التوسع غير المشروع وغير المتفق عليه..

تم خلع الأقفال.. وتطهير المستودع من موجوداته.. واختفاء الكتب.. والبقية الباقية منها ظلت مبعثرة تصهرها حرارة الشمس المحرقة وتطعمها الفئران.. لا شيء بقي منها البتة.. لقد ذهبت في خبر كان.. تلك هي اللعنة الأولى.. أي المحطة الأولى للضياع..

المحطة الثانية

وأثناء عملي في بيروت أمكن لي تكوين مكتبة منتقاة بعضها كُتُب مهداة.. وأخرى مشتراة.. أكثر من ألفي عنوان جمعتها في غضون اثني عشر عاماً.. وجاءت الطامة الكبرى يوم اندلعت شرارة الحرب الأهلية عام ١٩٧٥هـ.. وبعد أن بلغت الروح الحلقوم من شر مخاطرها وويلاتها.. وبعد أن تساقطت الصواريخ من حولنا يمنة ويسرة كان علينا أن نرحل غير ملتفتين إلى شيء مما نملك.. فالنجاة وحدها والحياة كل ما أسعى إليه وأسرتي.. تركنا السكن ورحلنا إلى القاهرة مخلفين خلفنا ثيابنا.. وأثاثنا.. ومقتنياتنا.. والمكتبة..

بعد الرحيل وبعد شهور من الغياب عدنا إلى بيروت.. والعود ليس أحمد.. لقد سطا اللصوص على كل شيء.. لم يبق إلا الأبواب والحيطان.. والرخام.. وكتلة من الأحزان والآلام تعتصر القلب..

قيل لنا أن اللصوص استباحوا لصوصيتهم لأن صاحب السكن امبريالي يملك بئر بترول.. ويستحق ما جرى له. رغم أنه لا يملك بئر ماء دون ماء.

ثالثة الأثافي

وثالثة الأثافي لعلها الأكثر وجعا وخسارة لأنني بها افتقدت نصف عمري.. أسرة كريمة كانت في زيارة خاصة للقاهرة.. ولمكانتها وقدرها جمعت داخل حقيبة أعز وأنفس ما أملك.. ساعات. أقلام. أجهزة راديو. سبح ثمينة.. وأهم منها مجموعة من مؤلفاتي التي لم تطبع أذكر منها:

(١) خاطرة البردوني. (٢) عن الحقيقة. (٣) أعاصير في الحب والحياة. (٤) عبقري المدينة. (٥) فكرة ومأساة. (٦) أحاسيس من الصحراء. (٧) نفحات وزوابع. (٨) قصة ملاك. (٩) مثل شعبي في قصة. (١٠) قصص تافهة. (١١) تجربتي مع الشعر الشعبي. (١٢) قصيدة للأطفال. (١٣) أبيات مختارة. (١٤) قصائد في المهد. وأخرى نسيتها.

أشياء احتوتها الحقيبة التي غادرت ولم تصل إلى مستقرها وبعد مرور أكثر من خمسة عشر عاماً.. إلى أين ذهبت.؟ وكيف اختفت لست أدري.. لعلها في إحدى الزوايا منسية.. قد يكشف عنها المستقبل.. وقد لا يكشف.. خسارتي الثالثة في ضياع الحقيبة أوحى لي بهذه الأبيات.. وأنا أعمر البيات بشكوى ما زالت تسكنني وتؤرقتي:

ضـــاع منـــي نـــصف عمـــري

حيـــنما ضُـــيّع فكـــري

هـــيَ عـــشرون كتابـــاً

أَجهـــدَت ذهنـــي. وحـــبري

هـــيَ. لا تعـــرف شـــيئا

أيـــن ضـــاعت لـــست أدري؟!

قيـــل لي: صـــبرا ســـتأتي

لم تجـــئ..! قـــد عيـــل صـــبري

ســـامني دهـــري ضـــياعا

آه.. مـــا أقـــساك دهـــري

واخيرا وجدتها بعد طول عناء وانتظار. ورثاء حار استغرق زهاء ستة عشر عاما عادت الحقيبة إلى قواعدها سالمة.. عاد نصف حياتي إلى نصفه الآخر.. لم يكن ضياع حقيبة وإنما نسيان حقيبة كانت قاب قوسين أو أدنى من الرؤية. لدى من أرسلت إليه حمداً لله على سلامتها.

التهمة غير جائزة وجاهزة

حملتُ نفسي كل أخطاء البشر.. ومع هذا لم أسلم من الشر..

حاولت جاهدا أن لايتهمني أحد بأنني أعنيه فتحملت المسؤولية دفاعا عنه.. وعن غيره كي لا يظن أحد أنني أشير إليه من طرف خفي. كانت مجرد خاطرة تحولت إلي مقامرة أصابني بعض رذاذها.

كيف جاءت الفكرة؟ وكيف أخرج بها إلى أرض الواقع وفي مأمن من عذل الناس. وعتبهم؟!

الحياة البشرية مليئة بالأخطاء والأخطار يعرفها الفرد منا.. بل ويمارس بعضا منها.. وللسلامة جعلت من نفسي كبش فداء يتحمل كل أوزار الآخرين وأخطائهم كي لا تقع هي فيها.. توكلت على الله.. وكانت الحكاية:

كتاب ألفته تحت عنوان «رسائل إلى نازك» أقدم نادي الطائف الأدبي على طباعته منذ سنوات عدة..

نازك هي ابنتي الكبرى ناشدتها أن تقرأ حياتي مثقلة بأخطاء الغير كما لو كان هو فاعلها.. أخذ الكتاب طريقه إلى التوزيع.. نسخة منه بيد رئيس تحرير سابق أعطاها لابنه الشاب.. إن هي الا أيام حتى فاجأتني تلك الصحيفة بكلمة

لابـن رئـيس التحريـر يطـرح مـن خلالهـا رؤيتـه الـصارخة والمـدمرة للحـس وللنفس..

اتهمني بالجنون.. ليكن.. طالَبَ بمحاكمتي والحكم عليَّ بأقصى عقوبة لأن حياتي ملوثة بالسواد.. مع أن المجنون مرفوع عنه القلم لا يحُاكم ولا يحُكم عليه..

بشيء من التعقل بعثت ردا هادئا للشاب الغاضب.. لكنه لم يُنشر..

المشكلة إننا لا نقرأ.. وحين نقرأ لا نستوعب أبعاد ما نقرأ.. وإنما تتملكنا ثورة تبحث عن حل لعقالها.. وربما لعقلها..

جزاء سنمار

أسرة كريمة تشدنا بها علاقة صداقة قديمة.. نشأ بين بعض أفرادها خلاف انتهى إلى خصومة وقطاعية.. حاولت جاهدا و مجتهدا إصلاح ذات البين حفاظا على سمعتها من أن تلوكها ألسنة الفضوليين. والكارهين..

رفعت سماعة الهاتف.. أبديت في رغبة المحب الوصول إلى نقطة نقاء والتقاء. وجاءني الرد حادا.. وغاضبا..:

- هذه مشكلة عائلية ليس لك حق في التدخل فيها..

هذه المشكلة لم تكن الأولى التي طفت على السطح في واقعنا الأسري.. قبلها أربع حالات مماثلة من الخصومة طرقت أبواب المحاكم بين أفراد الأسرة الواحدة للأسف..

بعدها بمدة كتبت كلمة تحت عنوان «الفتنة» إشارة إلى الآية الكريمة (إنما أموالكم وأولادكم فتنة).. المادة وكيف أخلت بالعلاقات والصداقات..

لم ترق لهذه الأسرة الكريمة الكلمة.. حسِبَتْها إشارة مبطنة تعنيها.. لا أنها حالة اجتماعية عامة أحاول بصدق تلافيها.. وإيقاف تداعياتها على بناء مجتمعنا الأسري المتماسك.. الطين زاد بلة.. زاد من ركام الغضب إلى درجة

إعلان الحرب التي لا يطفئ نارها طوفان تسونامي.. ولا إعصار كاترينا وأمواجه الكاسحة..

قبلتُ القطيعة حتى ولو جاءت من أعز الناس.. ولن أقبل أبدا أن أتخلى عن واجب النصح والوفاق لمن هم في حاجة إليه حتى ولو غضبوا.. أخيرا وبعد طول عتب وغضب ذاب جليد الجفاء على نار صحوة أعادت المياه إلى مجاريها.

«اعمل خيرا..». تلق خيراً..

مثل يثبته الواقع لا يمكن انكاره.. وانما استذكاره في لحظات نكران كتلك الحالة التي عشتها.. وعايشتها.. دون تراجع.. ولا إحساس بالندم.

تصورات طفولية

قبل سبع وستين عاما مضت يومها كنت في الحادية عشرة من عمري أطل علي العالم حولي من خلال ثقب ابرة ضيق.. كيف؟!

- تصورت العالم بأسره يدور حول فلك موقع ارتكازه اسمه «شقراء» يتأثر بها.. وتؤثر فيه سلبا وإيجابا.. لو إنها قاطعت الطعام لأقفلت كل صوامع الغلال على ظهر البسيطة.. ولو إنها قاطعت الملابس لتوقفت كل مصانع النسيج..
- تصورت ميدان «حليوة» كأكبر ميدان في الدنيا دونه ميدان القاهرة في الرياض.
- تصورت الشارع الممتد بين حليوة وسديرة كأطول واوسع شارع في العالم يتضاءل أمامه شارع الشانزليزيه في باريس.
- تصورت مدينة شقراء ذات الألف نسمة والتي توصف بأنها «رمانة» نسبة إلى كثرة حباتها بأنها الأكبر سكانا من غيرها.. يوم صلاة العيد يوم مشهود في تاريخ شقراء.. يهرع السكان رجالا ونساء وأطفالا لأداء الصلاة في مسجد العيد.. يصل عددهم ألف نسمة.. هذا

المشهد وأنا أشاهد الألف نسمة يضمهم صعيد واحد يبهرني وينطق لساني وأنا أردد الكلمة العهوده: «سبحان محصي جميع خلقه».

- كنت كأقراني من الأطفال ندس آذاننا في التراب كي نسمع صوت سيارة قد تأتي.. وما أن يثور غبار السيارة القادمة حتى تتملكنا الدهشة والفضول من هذا الكائن الحي الذي يطوي أبعاد الأرض..
- دخلت التاريخ من أوسع أبوابه بعد أن تملكت لأول مرة راديو زينت الذي يستمد وقوده من بطارية كبيرة مشحونة.. الكثيرون من زملائي وأصدقائي يلتفون حوله في إعجاب ودهشة..

وبعد أن كبرت.. وزرت شقراء الحبيبة ضحكت على سذاجتي المبكرة وضحالة تصوراتي. الميدان الذي أعجبت بسعته أتجاوز مساحته في بضع خطوات.. الشارع الطويل الممتد لا يتسع لمرور أكثر من سيارة واحدة وبشق الأنفس.

- الدكاكين التي كانت تعمر ميدان حليوة والمجلس والمجباب والتي خلتها كثيرة وكبيرة لا تتسع مساحتها لأكثر من عشرات الامتار..
- الألف ساكن الذين بهرت بعد دهم لا يتجاوزون عدد سكان عمارة واحدة ذات أدوار متعددة في أية مدينة كبيرة..
- القطب الذي كان العالم من حوله يدور مجرد نقطة صغيرة على خارطة عالم كبير تتأثر به ولا يؤثر فيها.. ثقافة الجغرافيا

والديموغرافيا بين تصورات الصغار وبين واقع الكبار شيء مختلف..

صحيح إن غباوة الطفولة لها نكهة البراءة والسذاجة.. وربما أيضا راحة نفسية لأنها غضة وبضة لم تلونها متغيرات البيئة الرديئة وصخبها.. إلا أن الصحيح أيضاً أن الحياة نقلة لازمة من مرحلة مبكرة إلى أخرى متأخرة يطل منها الإنسان على واقعه من خلال باب واسع ومفتوح على مصراعيه وليس من خلال ثقب إبرة ضيق هي كل ما كان بإمكانه أن يملك..

- وأخيراً.. أراد أن يعربه فأعجمه.. هذه المدينة القديمة الوادعة ناعسة العينين روّعتها يد الارتجال بفتح شارعها الممتد من الشرق إلى الغرب.. به أضاعت معالمها. شوارعها. أزقتها. حاراتها. بيوتها.. تداخل التراب بالخراب.. لم يعد يستبين أهلها إلا ماندر أين كانوا.. وأية جادة توصلهم إلى حيث كانوا.. بهذا الشارع الارتجالي المشؤوم، انتهت المدينة السكن.. لم يبق منها إلا بقايا أطلال. وظلال باهتة تتحدث عن جغرافيا كانت شيئاً وتحولت إلى لا شيء..

ليتهم أبقوها داخل أسوارها.. وكفوها شر ارتجالهم.. ولكن تذكرت ما حدث ومقولة الشاعر مع تصرف في شطره الأخير:

هـــل تنفـــع شـــيئا ليـــت

ليـــت اذى مـــا هـــدَّ مـــا بنيـــت

ومعذرة للحصان أو الحمار ومن اشتراه ومن تغنى بـه.. وهـو يقـول «ليـت حصانا بوع فاشتريت».

مغامرة غبية

الخطا الصغير قد يؤدي إلى خطر أكبر يفضي إلى التهلكة ويرقى إلى درجة الخطيئة.

ففي ١٤٢٤هـ كنت برفقة ابنتي نؤدي للمرة الأولى فريضة الحج وأؤدي حجتي للمرة الثالثة في حياتي..

كان الوقت ظهراً، وأخاله يوم جمعة، وقد احتشد الحجاج كعلبة سردين أمام الجمرة الكبرى يقذفون في وجه الشيطان حُصيَّهم.

الأَجساد متلاصقة لا تكاد تتحرك.. كنت على مقربة من رمي الجمرات تدفعني الأمواج البشرية إلى الأمام دون أن أقدر على الحركة.

في حزامي الذي شددته على خصري بقوة هاتف جوال أخذته للضرورة أودعته داخل جيب محكم، وحجبته داخل حزام الإحرام حرصاً على سلامته من الأيدي العابثة التي قد تمتد إليه خلسة.. كان ما توقعت.. اليد العابثة استطاعت أن تصل إليه في غمرة الزحام الخانق.. أحسست بحركتها دون أن أقوى على ردها..

سقط الهاتف بين الأقدام المتراصة.. حاولت في غباء الانحناء بحثاً عنه

والتقاطه.. لحسن الحظ اجتذبتني شهامة أحدهم وأعادتني إلى صوابي بعد أن كدت أقع وتدوسني الأقدام.. وأنا لا أكاد ألتقط أنفاسي سألني آخر على مقربة مني:

- عن ماذا تبحث؟

أجبته: وأنا أرتجف خوفاً وغضباً:

- لقد سقط مني هاتفي الجوال.

وبشهامة الرجال حنى ظهره يتحسس الأرض بصعوبة.. والتقطه بعد أن وطأته بعض الأقدام.. وتركت بصماتها على شاشته، وعلى جبهته العليا إن صح هذا التعبير..

الهاتف لم يمت فما زال يتكلم ويتألم لجراحه.. أحتفظ به كشاهد على واقعة كدت أدفع حياتي ثمناً لها.

أكثر ما أحسست به من ضائقة وألم ألاَّ يكون للحج بجلاله وقدسيته حصانة تردع النفوس الضعيفة من التطاول على جيوب الناس.

موقف ديني إيماني يتحرك فيه اللصوص دون خشية من العقاب.. ربما لأن القصد من حجهم أن يعودوا بمغانم محرمة لا علاقة لها بالحج وما يدعو إليه من مطاردة الشيطان ورميه بالجمرات.. إنهم شياطين يستحقون الرمي تماماً كشيطان اللصوصية..الذي لا يدين بدين.

أنا والزمن والمتغيرات

(١)

بين أي جيلين متعاقبين اختلاف أحسبه لا يرقى إلى درجة الخلاف لعله الأصالة ولعلها المعاصرة من خلال خط متوازي حينا.. ومتقاطع أحياناً..

تبدو الفجوة بينهما أحيانا واسعة بحكم متغيرات الزمن وتطور آلياته وأدواته ومدى القدرة على استيعاب مستجداته.. إنه الفارق في حساب مجرى الحركة التاريخيه ما بين الأمس.. واليوم. الأمس بفطريته وملامح شخصيته.. ونمط حياته التي تشكلت بحكم الظروف الزمنية.. واليوم بثقافته وانجازاته العلمية.. والالكترونية. وثورة معلوماته التي تسابق الزمن.. تاركة لجيل الأمس مجرد علامات استفهام؟؟ وتعجب!! ودهشة لا تترك مجالا لحل رموزها بعامل العجز الذي خلفه رصيد الأمس.. ولأن الحياة مجموعة أجيال متلاحقه متواصلة زمنيا.. متفاصلة نوعيا في شكلها ومضمونها.. لكل جيل بصمته.. وملامح شخصيته فإن إنسان الأمس يختلف عن إنسان اليوم من حيث الطباع. والسلوك. والتذوق.. ونوع الحركة.. منجذبا إلى عصره الذي عايشه وعايشه متذكرا خصائصه وملامح صورته التي ما زالت مطبوعة داخل

مخيلته باعتبارها ذكريات جميلة تشبع ميوله ورغبته حيث يجد نفسه في الصورة ما زال حيا خارج دائرة العجز الزمني المزمن الذي لا يقدر على مغادرته.. والا فاته قطار العمر بما يحمل من محطات ولج إليها أو غادرها أو أوشك على مغادرتها..

لعلي أحد الذين ينتمون إلى جيل أوشك على الرحيل.. كل ملامحه فطرية وبدائية يستأثر بخصائص ومقومات آلت إلى الاندثار.. ومع هذا يشدني الحنين إليه رغم شظف العيش.. وقسوة الحياة. وقلة المادة.. إلا انه ثري بقِيَمه الروحية.. والأخلاقية.. بوصله وتواصله الأسري والاجتماعي.. ببره. وسماحة أهله.. تلك هي ثروته.. فلا مئات الملايين ولا البلايين كانت شغله الشاغل.. كانت الكفاية. وكان السعي الكريم.. وكان التحمل.. وكانت بداياته البدايات لملامح عصر الحضارة المادية المنهكة لجيل جديد ومتغير..شعرت فيه بالنقص لأنني لا أمتلك شيئا من أدواته.. بل لا أقدر لو أنني ملكت على التعامل مع تلك الأدوات الحديثة المتطورة وفي مقدمتها شبكات التواصل الاجتماعي «يوتيوب» و«جوجل» و«فيسبوك» و«تويتر» و«بلاك بيري» وأخواتها.. لقد سَخِرْتُ من نفسي ومن جهاز هاتفي الصغير الميسر الذي أستعمله وأكاد لا أجيد ضبط محطاته العادية.. شعرت بالجهل وأنا أرى أطفالا في عمر أحفادي يتعاملون مع الكمبيوتر والانترنيت في براعة وأنا ألا حق جهاز الترانسيت

الصغير الحاكي بحثا عن إذاعة محددة أتوقف عندها..

شعرت بالخجل وأنا أنصت إلى شباب يتحدثون بأكثر من لغة في حين أنني أصارع فهمي عبر لغة وحيدة العربية هي كل ما أقدر عليه.

شعرت بالوجل وأنا أشهد في حرقة كيف تتعامل بعض أسر الحاضر مع مستخدميها. وما يلحق ذلك التعامل السيء من إهانات. واذلال. وقسوة، شعرت بالحزن على شباب يعيشون الفراغ القاتل بحثا عن عمل فما يلقون.

شعرت بالاستنكار والرفض لكل أنواع العنف بداية من مصارعة الثيران. مرورا بالمصارعة الحرة. وصولا إلى مصارعة الإنسان للإنسان في زمن اتسم بالوحشية والعدوانية. والنكران.

شعرت بالحرمان من تجاهل من يملكون الملايين والبلايين وقد تنكروا في حق من لا يملك الا الملاليم، شعرت باليتم على طفل بريء تخلت عنه أمه وانشغل عنه أبوه.

شعرت بالذل وبالمهانة على واقع أمة عربية واحدة تحولت إلى أمم متباعدة بعضها يتربص بالآخر ضقت بنرجسية العصر. وتضخم الذات فيه وحب الظهور.. بتفاهة الرؤية. وسفاهة الموقف. وسفاسف الأمور. وضياع الهدف. وانسلاخ الشخصية عن مواقعها وواقعها.. وعن الغياب المخيف عن استشعار الأخطار الكبيرة والكثيرة المحدقة بنا وبمستقبل أجيالنا. وتاريخنا..

نخشى كل هذا وأكثر وقد جرفنا عصر الحداثة المادية الذي لم نعهده قبل ثمانين عاماً وأكثر يوم أن كان جيلنا أكثر بعدا عن هذه المستجدات.. وتداعياتها المدمرة على الحس. والنفس.. والضغط. والسكري.. وكل أعراض الأمراض الجديدة الناتجة عن تلوث البيئة.. ومتغيرات المناخ الذي ساعد إنسان هذا العصر الحضاري. المادي. العلمي المتقدم على إضافته..

لجيلنا نكهة الماضي ببدائيته.. رغم قلة موارده كان مريحا للأعصاب.

ولهذا الجيل نكهة الحاضر وقد اصطدمت بالصخب.. وبالثراء.. وبدفع الضريبة المادية.. وبالمشاغل الكثيرة.. وبالمشاكل المثيرة داخل المجتمع الواحد ولم يكن هذا موجودا في الماضي.. لأن المال سلطان جائر أكثر جورا من سلطان النوم..

بين الجيلين تمايز.. الأول بتواضعه وبساطته.. والثاني بمادياته المرهقة.. وقد شدني الحنين إلى الأول من حيث لا أقدر على الرجوع إليه..

ألا ليت الشباب يعود يوما

فأخبره بما فعل المشيب

ولقد فعل فعله دون استئذان.. هكذا عربة العمر تتحرك نحو المحطة الأخيرة.

(يتبع)



الحلقة الثانية

(٢)

بداية بمقولة شاعرنا الحكيم.

لكل زمان دولة ورجال

الزمان حقب تاريخية متلاحقة يرث بعضها بعضا.. وينسخ بعضها بعضا في معظم حالاته. الأذواق تتغير.. والمشارب والمآرب تختلف.. والظروف الاجتماعية تتباين..

الجيل الذي وُلدت فيه مبكراً كغيري قبل ثمانين عاما عايش «قربة الماء» «وزير الماء» و«المهفة» والسراح والاتريك. وبداية السماع لجهاز الراديو.. وبداية ركوب السيارة.. وبيوت الطين. والأزقة الضيقة.. والمجتمع المتماسك المترابط.. ووجبات الطعام والشراب المألوفة والمعروفه.. «المرقوق» و«الجريش» و«التمر» و«القرصان» و«العفيس» و«المصابيب» و«الحنيني» و«الملتوت» و«المحلى» وشرب «الحليب» و«اللبن» كل في حدود استطاعته..

وجاء الجيل الذي يليه بأدوات جديدة مختلفة «الثلاجة» و«المروحة»

و«الكهرباء» و«التلفزيون» والمكيف والهاتف. و«السيارة» و«الطيارة» و«ثورة المعلومات» و«الأنترنيت» و«الكمبيوتر» و«الجامعات» و«الدارات المكيفة» و«العمارات الشاهقة» و«الطرق المعبدة» والماكدونالد. والبتزاهيت.. والبيبسي.. وأمراض السكر والضغط النفسي.. أي ضريبة الحضارة المادية.. عاشها وعايشها بفهم مختلف.. وبذوق جديد يختلف عن سابقه مأربا. ومشربا.. وتذوقا.. هكذا جاء التحول سريعا وأكاد أقول مريعا لأنه كاد أن يفك الحلقة التي تصل سابقتها إلى درجة الانفصال. ويأتي التذوق.. وهو رغم هذه الخشية أمر شبه طبيعي بين جيلين مختلفين في كل شيء حتى في التذوق الفني والجمالي وعلاقات الأسرة الواحدة ببعضها وانشغالها بهموم حياتها واللهاث وراء المادة.. لنأخذ مثلا الجيل الذي أنتمي إليه والذي ينزع إلى أصالة جيله كما أرى يشنف اسماعه بصوت «فيروز» وهي «تصدح بأغنيات طربية تذكرك بالشلالات. وبالطيور. وبالبحيرة.. وبأشجار الأرز. وببيروت البحر والنهر السهل والجبل.. والجمال الآسر.

وبكوكب الشرق «أم كلثوم» في أغانيها الخالدة.. الاطلال ومصر تتحدث عن نفسها سلوا قلبي وولد الهوى وفيروز وهي تردد «من عز النوم» «الورق الأصفر» «أسامينا» «سلم لي عليه» .. كنموذج من هذين الصوتين الرائعين للفن الأصيل والجميل هذا عن جيلنا الذي يكاد ينظر إليه جيل لحق به -

بعضهم لا كلهم – نظرة قصور باعتباره متخلفا عن ركب الحداثة الذي يمثله مطربون لا يطربون وإنما يتراقصون على وقع ضربات أقدامهم وفج كلماتهم وهزال ألحانهم.. وصخب جماهيرهم.

حتى في خصوصية الطباع والانطباع بين جيلين تبدو كبيرة ومتباينة.. جيل مضى كانت أواصر القربي لديه أكبر التصاقا و حميمية من جيل اليوم. لم تعد الأواصر الأسرية كما هي لقد تغيرت بمتغيرات الزمن.. ظهرت المشاكل والمشاغل أكثر.. لم تعد عاطفة الأبوة والأمومة والبنوة على حالها.. كل في حال سبيله يواجه حياته بمفرده إلا فيما ندر..

أكثر من هذا ما تتركه المتغيرات من بصمات على وجهة النظر الواحدة.. لقد تباينت المقاييس والمعايير إلى درجة الخلاف والاختلاف في أمر ما قد لا يحتمل الاختلاف ولا الخلاف.. ولكنها طبيعة الزمن التي توحي باستقلالية الشخصية إلى درجة التمرد والتفرد بوجهة النظر..

مثلا أولادي. أحدهم مولود في الطائف. شقيقتاه ولدتا في بيروت. وآخر العنقود وُلد في القاهرة.. إنهم في حالات كثيرة يذكرونني بجامعة الدول العربية في وجهات نظرهم المختلفة.. باتفاقهم على أن لا يتفقوا.. وغيري الكثير الكثير من الأمثلة المتشابهة..

أمر طبيعي أن لا تتقاطع خطوط الأجيال المختلفة.. وأمر طبيعي أن يرسم

الزمن خطين متوازيين يميزهما عن بعض .. وامر طبيعي أيضاً أن يأتي جيل جديد منتظر ينظر إلى جيل اليوم باعتباره جيل له قصوره.. ونواقصه.. وتخلفه.. هكذا تأتي دورة الزمن المتجددة بشخوصها وعلاماتها وأحكامها مواكبة للمتغيرات العلمية. والذوقية. بل والسلوكية.. والاجتماعية..

انها سنة الحياة .. التي تتطور. وتتغير.. المهم ان لا يرفعها الله إلى أسفل!!! على حد قول الشاعر الحكيم أيضاً:

فيا له من عمل صالح

يرفعه الله إلى أسفل..

المطلوب.. والمؤمل وهو في علم الغيب أن يرفعه الله إلى أعلى بدون حروب.. بدون كوارث. بدون كراهية.. وبدون قطاعية تمزق أوصاله.. وتروع أجياله.. وتحبط آماله وأعماله، الحياة عقد من التاريخ مترابط لا يقبل الانفصام ولا الانفصال وإلا تناثرت حباته وذهبت ريحه.. وسقمت روحه..

لنأخذ من الحضارة أجمل ما فيها أن نضيف إليها.. ولنطرح من واقعنا أسوأ ما فيه.. حينها نقف على أقدامنا مخُيَّرين لا مُسيَّرين.. لنا بصمة واضحة تتحدث عنا كصناع حياة.

حكاية.. مكتبة..

لن أسميه فهو يعرف نفسه

أحتفظ في دارلي بمكتبة قوامها ألفي عنوان.. وكرجل طاعن في السن خشيت عليها الضياع بعد أن أرحل.. ذلك أن أولادي في معزل آخر.. أحدهم طبيب ومسئول في وزارة الصحة. والثانية طبيبة أطفال. والثالثة مبرمجة كمبيوتر. والأخير يدرس القانون الدولي ويتعاملون جميعا مع وسائل الاتصال والتقنية الجديدة. مع «التويتر» و«فيس بوك» و«بلاك بيري» و«واتس أب» و«سكايب» وبدافع هذه الخشيسة. وحتى لا يؤول مصيرها إلى العبث كما حدث لمكتبتي الأولى. والسرقة لمكتبتي الثانية.. وكي لا تكون الثالثة طعمة للضياع أو التآكل قررت أن أقدمها هدية إلى مؤسسة تعليمية كبرى حديثة بشقراء كنواة لمكتبة المستقبل يرجع إليها طلاب تلك المؤسسة أقدمت على تحقيق هذه الفكرة.

خاطبت هاتفيا المسؤول الأول عن هذه الرغبة.. أبدى موافقته.. وإن هي إلا أسابيع حتى جرت كرتنتها في حدود مائة وثمانين كرتونا.. ليتسلمها المندوب. ونقلت عبر شاحنة كبيرة. لم أتبلغ باستلامها ولا كلمة شكر عليها

حتى هذه اللحظة.. لا يهم فالواجب لا شكر عليه.. هذه واحدة..

أما الثانية كانت إقناع أحد أصدقائي الذين اعتز بصداقتهم. وله ظروف مشابهة. ولديه مكتبة يخشى عليها التآكل أو الإهمال.. أن يقدم مكتبته لتلك المؤسسة التعليمية.. لم يتردد في الإجابة والاستجابة خاطبت المؤسسة بهذا الشأن أعطيت العنوان للتنسيق معه.. جرى الاتصال واستلام الكتب.

إن هيَ الا بضعة أيام حتى هاتفني ذلك الصديق يدعوني لزيارته وتناول طعام العشاء في دارته بحضور أحد المسئولين عن تلك المؤسسة..

حضرت.. وكانت المفاجأة.. شخصان أحدهما يحمل كاميرا.. والآخر يحمل شهادة شكر إلى جانب درع تقدير.. وتم التصوير.. وانتهى المشهد إلى خير!! وكل عاد إلى سبيله..

ولحظة خلوة مع نفسي تزاحمتْ في داخلي مجموعة من التساؤلات. فكرت. وفكرت عقدت الخنصر والبنصر.. ضربت اخماسا لأسداس.. أي تجاهل؟ وأي جحود؟ وأي امتهان للمشاعر هذا الذي جرى؟

نعم.. صديقي الذي جاد بمكتبته يستحق الشكر والتقدير.. ولكن أين هي الأسباب التي حالت. دون كلمة شكر؟ لماذا التناسي وقد أهديت.؟ ولماذا التناسي وكنت واسطة خير في إضافة مكتبة ثانية؟!

حتى مجرد خطاب رخيص التكلفه لم يصل. ولم أعد أفكر فيه..

خلصت إلى نفسي.. وتساءلت: هل يستحق هـذا المسؤول إدارة مؤسسة تعليمية كبرى: وتذكرت شاعرنا العربي القديم وبيت شعره الذي يقول:

إذا أنـــت أكرمـــت الكـــريم ملكتـــه

وإن أنـــتَ أكرمـــت اللئـــيم تمـــردا..

انتهت الحكاية. وانتهى المسؤول عن تلك الإدارة بإقالته لعدم جدارته بالبقاء.

عدت.. والعود أحمد

من فينا من لا يفرح بعودته إلى وطنه.. إلى أهله.. وبالذات بعد أن يتقاعد من عمله وقد أدى ما عليه.. حينها كنت في السبعين من عمري أنشد الراحة.. ألتمس الهدوء بعد صخب العمل ومسئولياته.. كان خيارا محسوما لا رجعة فيه ولا تردد معه.. وبالذات متطلبات الجسد الذي بدأيئن على ضربات الكهولة وأعراضها وأمراضها متطلبا العلاج.. ومنتظراً لحظة الرحيل إلى عالم آخر.. وهو قدر لا مفر منه..

تذكرت حكاية قطع غيار السيارات قبل خمسين عاما حيث كنت أعمل.. وتذكرت معها مقارنة لذيذة تمثل لمحطات العمر التي أقطعها..

السيارة كالإنسان تتدرج من قوة إلى ضعف.. في أعوامها الثلاثة الأولى تنطلق عجلاتها دون حاجة إلى قطع غيار.. وفي السنة الرابعة تحتاج إلى بوبينة. وبواجي. وبليتين. وفي الخامسة إلى ديلكو ودينمو وكاربريتر.. وفي السابعة راديتر وفي الثامنة.. تدخل مرحلة التبويش والإنعاش والثامنة في عمر السيارة تعادل الثمانين في عمر الإنسان.. شعرت داخل نفسي وقد تجاوزت السبعين أنني أقضي مرحلة التبويش.. هنا أتت رغبة الاقتراب منتصرة على

هاجس الاغتراب.. المستشفيات في وطني هي الأهم والأرحم.. هذه واحدة.. وما بعد العلاج سوف تأتي مرحلة الاغتراب.. والنقلة من عالم الأحياء إلى عالم الأموات.. لتكن النهاية داخل وطني وعلى ترابه.. ولأن الغياب في علم الغيب فقد حددت المكان جامع الملك خالد.. ومقبرة أم الحمام.. فأنا أحب الحمام.. أليس هو رمز السلام؟! هذا إن بقي فيها متسع لقبري.

سبعون عاما لم تكن رحيمة ولا مريحة كما انتظرت.. توقعت الركون إلى الراحة بعيدا عن الضوضاء. والصخب. والمشاكل. والمشاغل التي لا تعد ولا تحصى.. فمن التزامات أسرية. وأدبية إلى ارتباطات أفراح.. وأتراح شبه يومية تجهدني، عناء انتقال مرهق في مدينة ضخمة وصاخبة متباعدة الأطراف تكلفني وعثاء الذهاب والاياب.. ترهقني أكثر مما أنا مرهق..

ضريبة تحملتها في صبر.. مرغم أخوك لا بطل.. وما زلت معها أدور مع عجلتها التي لا تتوقف الا بتوقف النَفَس.. وذهاب النفْس..

لو كان الأمر بيدي لاخترت مثلا مسقط رأسي «شقراء» مقرا.. ومستقرا حيث الهدوء. وذكريات الطفولة. والناس البسطاء الطيبين.. ونقاء الجو.. ولكن تأبى الظروف إلا أن تحكم وتتحكم.

«تريد يا عبدي وأريد.. وليس لك يا عبدي إلاما أريد».

هكذا كانت البداية.. وهكذا جاءت النهاية.. عودة حميدة إلى وطن أعشق ترابه. وتراثه. وتاريخه.. وسكنه الأخير حيث اخترت.. وحيث كتبت توصية شعرية هذا مطلع أبياتها بعد أن أرحل..

اذا مـــا مـــت يـــا أهـــلي

فـــــــــواروني الى ســـــــــهلي

إلى مقبرة أم الحمام.. حيث رمز السلام الذي أعشقه وأتمناه واقعا حيا لكل البشر دون خصام ولا صدام.. هكذا دعوة الإسلام.. وهكذا حلم الإنسانية يا كرام.

وأخيراً حمى الله وطننا الغالي حراً سيداً من كل سوء.. إنه التاريخ بأجياله وآماله وأعماله وآلامه.

أبو شبشب!!

في ليلة غراء ووفاء لراحلة من أقربائي حزمت أمري.. وارتديت كل ما خطر ببالي ثوبي .. طاقيتي.. شماغي وعقالي.. كان العزاء ليلاً.. سارعت إلى مركبتي.. دخلتْ.. عزَّيت.. سلمتْ وجلستْ.. كل شيء عادي بالنسبة إليَّ.. لا بالنسبة لغيري ممن شخصوا بأبصارهم إلى موقع قدميَّ..

أدركت أن شيئاً ما لافت للنظر أثار انتباههم.. شاركتهم النظر.. وسرعان ما طافت بخاطرتي أبيات شاعرنا:

أَعِدْ نظراً يا عبد قيس لعلما

أضاءت لك النار الحمار المقيدا

لم يكن المشهد ناراً. ولا حمارا.. ولا حذاء.. وإنما شبشبا أكل الدهر عليه وشرب.. أحسست أن دموعا ساخنة أوشكت أن تسيل على خدي خجلاً رغم أنني في مكان مكيف.. لا مكان للتغيير ولا للتدبير.. لقد قضي الأمر.. وبقي التساؤل الذي لا بد منه.. ماذا سيقول الشهود على المشهد؟!

أجزم شاهدا على الواقعة أن لسان حال بعضهم لن يفوته التعليق.. ولن تعوزه النكته.. مشيرين إليّ في لقاء قادم بسباباتهم قائلين:

- هذا أبو شبشب..

حكاية أحكيها. وأنا أضحك من نفسي على نفسي.

الموقف حصل عشية الثالث من رمضان عام ١٤٣٥ وقد بلغت من العمر أرذله.. أي أرزله!

انتهى المشهد

وسقطتُ من ظهر الحمار

قبل سبع وسبعين عاماً كنت حينها في الحادية عشرة من عمري أقوم بزيارة إلى بلدة أخوالي العناقر في ثرمداء.. اصطحبنى أحدهم في رحلة سقي للماء من بئر عذب.. أركبني ظهر الحمار للمرة الأولى في حياتي.. ركبتُ وبي خيفة ووجل أن لا تمر الأمور على ما أشتهي.. كل شيء عادي في بدايته.. وأن هي الا دقائق حتى بدت خطواته في التسارع.. فقدت توازني فسقطت على الأرض وقد تملكني الخوف.. آليت بعدها على نفسي أن تكون المرة الأولى والأخيرة في حياتي. والسؤال هل ان الحمار استنكر فأنكر فنكر؟!

تذكرت قصة جحا وعماره وابنه.. ركب جحا لوحده فاتهموه بعدم الرحمة. وركب ابنه لوحده فاتهموه بالعقوق. وركبا سويا فاتهموهما بالقسوة.. وتركا الحمار لوحده فاتهموهما بالحرمان..

وأخيراً ذلك الحمار الذي عرف يقتص لنفسه من الأذية والقسوة ولكن بشكل مغاير..

قرصه أحدهم من ذنبه فما كان منه إلا أن عض من يلي رأسه ثأرا وانتقاما.. المهم أن يقتص لنفسه ولو بشكل مغاير..

في بعض واقعنا البشري حين يعجز الواحد منا عن الانتصار لنفسه ممن هو أقوى يعمد إلى القصاص ممن هو أضعف تماما كما هي حالة الحمار الأخير..

أحِنُّ إلى زمن الفن الجميل

- فيروز «من عز النوم تُفيِّقني» و«الورق الأصفر».
- أم كلثوم في «مصر تتحدث عن نفسها» و«وُلد الهدى».
- عبدالوهاب وقد أخذني معه عبر النهر الخالد» و«الكرنك».
- عوض الدوخي في أغنيته الجميلة «ليالي السهارى».
- محمد عبده في «ليلة خميس» و«الأماكن».
- فايزة أحمد في «أيوه تعبني هواك» و«يا أم القمر على الباب».
- عزيزة جلال في رائعتها «الا أول ما التقينا» و«مستنياك».
- طلال مداح في نشيده «أفديك يا وطني».
- ميادة الجناوى في أغنيتها «سِيْدي أنا».
- نازك في أغنيتها الجميلة «ما تقلش كنا وكان».
- وتشدني الحان هؤلاء.
- السنباطي.
- محمد الموجي.
- بليغ حمدي.

- سيد مكاوي.
- الأخوين رحباني.

احتفظ لهذه الأشياء القديمة بالعلاقة المتينة.. أفلامي. أقلامي. أعوامي. أحلامي التي تكسرت مجاديفها بعد أن كشفتها موجة المتغيرات إلى الأسوأ.. تأسيا مني بمقولة الشاعر الذي حنّ إلى صباه وقد ضاع حلمه بعد أن كبر:

صغيرين نرعى البهم ياليت أننا

إلى الآن لم نكبر ولم تكبر البهم..

قديمك نديمك.. أو عديمك كما يقول المثل.. ربما لنقيصة في اختباري واختياري.. ربما!!

الله وحده اعلم بالصواب.

أخيراً تأثرت بهؤلاء:

- أبي العلاء المعري في لزومياته
- عمر الخيام في رباعياته
- إيليا أبو ماضي في تأملاته
- أبي القاسم الشابي في وطنياته

مسك الختام

المسافة بين مرحلتي العُمرية هي نفسها المساحة لرحلتي الفكرية ستون عاما بالتمام والكمال بدأت يوم أن أصدرت مجلة الاشعاع عام ألف وثلاثماية وخمسين هجرية حتى عام ألف وأربعمائة وخمس وثلاثين هجرية وما واكبها من ثرثرة فكرية رضي عنها البعض وغضب منها الآخر.. لا يهم.. رضى الناس غاية لن تدرك. وما قصة جحا وابنه وحماره عنا ببعيد!.

ما يعنيني وقد بلغت من العمر عتيا تلك اللمسة الكريمة من قيادتنا الرشيدة يوم أن توجت هذه المرحلة من العمر والرحلة مع الفكر بأعلى وأغلى وسام في حياتي.. وسام الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى في مهرجان الجنادرية التاسع والعشرين لعام ١٤٣٥هـ..

وسام شرف أعتز به أضعه على صدري ما تبقى لي من عمر..

وسام شهادة من قيادة رشيدة تعني أنني رقم صحيح في خانة حسابات الأحياء..

وسام هو بالنسبة لي مسك ختام.

وأنا أطرق بوابة التسعين وأقترب من حافة قبري ونهاية عمري وبعد أن

أودع ادعوا لي بالرحمة يرحمكم الله.

أخيرا.. معذرة لتوارد بعض الخواطر المتشابهة لأكثر من مرة في دلالاتها.. والأخطاء ان كان ثمة أخطاء لغوية أو طباعية..

الفهرس

كتب صدرت للمؤلف

✸ قصائد تتوكأ على عكاز	شعر
✸ قصائد تخاطب الإنسان	شعر
✸ صفارة الانذار	شعر
✸ اغنيات لبلادي	شعر
✸ رباعياتي	شعر
✸ ابحار. ولا بحر	شعر
✸ ذرات في الأفق	شعر
✸ لقطات ملونة	شعر
✸ أغنية العودة	شعر
✸ حلم طفولي	شعر
✸ أبيات.. وبيات	شعر
✸ تجربتي مع الشعر الشعبي	شعر
✸ حتى لا نفقد الذاكرة	نثر
✸ رسائل إلى نازك	نثر
✸ فلسفة المجانين	نثر

✱ أجراس المجتمع	نثر
✱ وللسلام كلام	نثر
✱ حروف تبحث عن هوية	نثر
✱ ثرثر الصباح	نثر
✱ استراحة داخل صومعة الفكر (٦ أجزاء)	نثر
✱ مجموعة مجلة «الاشعاع»	نثر
✱ كلمات للحياة	نثر
✱ أفكار مضغوطة	نثر
✱ اطلالة حول العالم	نثر
✱ شبح من فلسطين	قصة
✱ مثل شعبي في قصة	قصة
✱ نافذة على عالمنا العجيب	نثر
✱ ثرثرة الظهيرة	نثر
✱ شريط الذكريت	نثر

مؤلفات لم تطبع بعد:

(١) استراحة داخل صومعة الفكر (٦) أجزاء	نثر
(٢) محطات في رحلة قزحية	نثر
(٣) الباب المفتوح	نثر
(٤) ضحك كالبكاء	نثر
(٥) جعجعة. ولا طحن	نثر
(٦) عالم نضحك منه. وعليه	نثر
(٧) ثرثرة المساء	نثر
(٨) رحلة على جادة الكلمات	نثر
(٩) عناوين. ومضامين	نثر
(١٠) عالم فوق صفيح ساخن	نثر
(١١) على هامش الصحافة	نثر
(١٢) أوراق من زمن العبث	نثر
(١٣) جراب الحاوي	نثر
(١٤) فقاعات في الهواء	نثر
(١٥) حوارات	نثر

(١٦)	البواردي. في عيونهم	نثر
(١٧)	جد. وهزل	نثر
(١٨)	خواطر كاريكاتورية	نثر
(١٩)	في موكب الاشعاع	نثر
(٢٠)	بقايا من البقايا	نثر
(٢١)	الحياة كلمة	نثر
(٢٢)	ما قل. ودل	نثر
(٢٣)	من يشتري التاريخ مني؟	شعر
(٢٤)	عفوا بغداد	شعر
(٢٥)	الجراح حين تتكلم	شعر
(٢٦)	أبيات محظورة	شعر
(٢٧)	عازف على قيثارة الزمن	شعر
(٢٨)	كل الأشعار لا تقتل الظمأ	شعر
(٢٩)	همهمات شعرية	شعر
(٣٠)	قصائد للصغار	شعر
(٣١)	الموجة قادمة من القاع	شعر
(٣٢)	عناقيد في كرمة صغيرة	شعر
(٣٣)	قيثارة الوجع	شعر

❊ ❊ ❊